عراقيون
من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

العدد (3240) السنة الثانية عشرة
الخميس (18) كانون الاول 2014
WWW. almadasupplements.com

4
بدر شاكر السياب ذكريات الشعر والألم

السياب بريشة
الفنان ستار كاووش

السياب كما عرفته

خالص محيي الدين
شخصية ديمقراطية تقدمية

تخرج السياب في كلية دار المعلمين العالية سنة ١٩٤٨ وكان من المفروض ان يتخرج سنة ١٩٤٧ إلا انه فصل من الدراسة وهو في السنة الثالثة وكانت مدة الفصل سنة دراسية واحدة وذلك على اثر اضراب طلابي حدث في الكلية وكان السياب من نشطائه بل من قادته.

عاد الى الدراسة بعد انقضاء مدة فصله، التحق في السنتين الاولى والثانية في قسم اللغة العربية ثم انتقل في السنة الثالثة والرابعة الى قسم اللغة الانكليزية، اكمل الدراسة وعين مدرسا في ثانوية الرمادي لتدريس اللغة الانكليزية، حين ذهب الى الرمادي كان السياب بر ما بالحياة بعد فشله في حب او توهمه انه به، سكن المدينة اياما قليلة غريبا محبطا خائبا منقبض النفس خائفا مما سيلاقيه من مصير سياسي مجهول اثناء الهجمة الشرسة التي تعرض لها الحزب الشيوعي العراقي والحركة الديمقراطية سنة ١٩٤٨ بعد اعلان الاحكام العرفية بحجة حماية مؤخرة الجيش العراقي الذي شارك في حرب فلسطين بعد صدور قرار هيئة الامم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود وكان حصيلتها زج المئات من الديمقراطيين والشيوعيين في السجون واعدام قادتهم، وكان السياب ممن اعتقل وفصل من الخدمة.

في بداية سنة ١٩٥١، جاء السياب الى بغداد وعين موظفا في المديرية العامة للاموال المستوردة. كان في عنفوان نشاطه الادبي، كتب عدة قصائد كانت منها مطولته (المومس العمياء) ثم كتب بعدها (الاسلحة والاطفال) وقد شغلت هذه القصيدة ثلاثة وعشرين صفحة في ديوانه (انشودة المطر)، حين كتب السياب قصيدته "الاسلحة والاطفال" كانت حركة السلام العالمي في اوج نشاطها، كان يترأسها انذاك العالم الفرنسي فريدرك جوليو كوري وانتشر صداها في العراق وبالاخص العاصمة بغداد باعتبارها مركزا للثقافة والعلم والحراك السياسي، ضمت حركة انصار السلام وادباء ، شعراء، فنانين، محامين، مسرحيين، اساتذة جامعيين، ورجال دين، امثال المرحوم الشيخ عبد الكريم الماشطة، والمرحوم الشيخ الشبيبي والد الشهيد حسين الشبيبي في ذلك الجو العاصف من الحراك السياسي كتب بدر "الاسلحة والاطفال" يندد فيها بالحرب ويدعو للسلام بخيال شاعر مبدع لا كسياسي.

لقد كان السياب شاهدا ورقيبا على هموم وتطلعات عصره لقد سمعت ادناه طبول الحرب العالمية الاولى تدوي بما كان يتحدث عنها في حدود بيته الذي عاشه مع جده، وعان مع جيله مرارة الحرب العالمية الثانية وان لم تمسه نارها.

كانت القصيدة تدور حول فكرة مكثفة فحواها ان العالم يعيش تهديد حرب عالمية ثالثة كانت تلقي بضلالها على العالم وعلى الانسانية تقع مهمة ايقافها والا الفناء المحتوم للانسانية والتراث الحضاري.

استأجر السياب واخوه المهندس عبد الله دارا في محلة السنك، كان يستلقي ظهرا بعد رجوعه من عمله لاخذ قسطا من الراحة، تدعى عند اهالي بغداد "القيلولة" كان يسمع من بعيد او قريب صوتا ينادي، حديد عتيق للبيع، جربابة عتيكة للبيع، رصاص نحاس الى غيرها من الاغراض المعدنية القديمة تشترى من الناس لتجمع وتصدر خارج العراق بما يعرف "السكراب" خطرت في مخيلة شاعرنا المبدع ان هذه الاغراض من الحديد والرصاص والنحاس وغيرها من المعادن المشتراة تصدر وتصل الى الدول الكبرى لتتحول في مصانعها العسكرية الى بنادق ورشاشات ومدافع وغيرها من اسلحة الحرب والدمار، فيكون من ضحاياها الاطفال الابرياء.

ارى من المناسب ان اسمعكم شذرات منها للذي لم يقرأها او يسمع بها فهي من القصائد التي احدثت في وقتها دويا في الاوساط الادبية والسياسية في العراق وخارجه.

يقول في مطلعها واصفا الاطفال في برائتهم ومرحهم:

عصافر ام صبية تمرح
عليها سنا من غد يلمح
واقدامها العارية محار بصلصل في ساقيه
لاذيالها زفة الشمال
سرت عبر حقل من الستايل
وهسهسة الخبز في يوم عيد
وغمغمة الام باسم الوليد
تناغيه في يومه الاول

ثم يخاطب المنادي المشتري للحديد والرصاص:

لك الويل من تاجر اشام
ومن خائض في سيل الدم ومن جاهل

ان ما يشتريه
لدر الطوى والردى بنيه
قبور يوارون فيها بنيه
حديد عتيق، رصاص، حديد، حديد عتيق لموت جديد ثم ينتفض شاعرنا ويغضب ويقسم قسما غريبا، يقسم باقدام الاطفال الحافية:
باقدام اطفالنا العارية، يمينا بالخير والعافية
اذا لم تعفر جباه الطغاة على هذه الارجل الحافية
وان لم تذوب رصاص الغزاة حروفا هي الانجم الهادئة فمنهن في كل درب كتاب ينادي قفي واصدأي باحراب وان لم تضو القرى الناجية فلا ذكرتنا بغير السياب او اللعن اجيالنا الاتية

قسم عظيم وتحد وغضب عارم
وكما اسلفنا فان القصيدة طويلة بأخيلة غريبة ومفردات قلما استعملت في الشعر العربي، اخيلة لا تلتقطها غير مخيلة شاعرنا الخالد، الذي صور فيها الطفولة في عالم كرمه متجهم، انها توضح بشكل فذ عالم الاستعمار المقيت وترسم الازهرار وسط الاحداث القاتمة بشكل مرعب، وتنشر الالوان المأساوية وسط مظاهر الامل والترقب والايمان بالخلاص والغد المشرق.
حديد عتيق، حديد حديد.

ومن يفهم الارض ان الصغار يضيقون بالحفرة الباردة؟
اذ استنزلوها وشط المزار، فمن يتبع الغيمة الشاردة
ويلهو بلقط المحار؟
ويعدو على ضفة الجدول؟
ويسطو على العش والبلبل ومن يتهجى طوال النهار ويلتغ الراء في المكتب
ومن يرتمي فوق صدر الاب
اذا عاد من كده المتعب
اسى موجع ان يموت الصغار حديد عتيق ورعب جديد حديد رصاص، لان الطغاة يريدون ان لاتتم الحياة مداها والا يحس العبيد بان الرغيف الذي ياكلون امر من العلقم
وان الشراب الذي يشربون اجاج بطعم الدم ملحمته المفقودة فجر السلام

تعرفت على الشاعر الراحل في بداية سنة ١٩٥١ حين كنا موظفين في المديرية العامة للاموال المستوردة. كان مديرها العام المرحوم ناظم الزهاوي ومعاونه خالد الذكر الشهيد زكي عبد الوهاب كان عملنا في الاعم خارج الدائرة وتحديدا في محطة غربي بغداد ، كنا نجلس في مقهى متواضع بانتظار انجاز المعاملات المكلفين بها وهي اخراج البضائع المستوردة لحساب الدائرة من دائرة الكمارك، واثناء جلوسنا كنا نتحدث بامور شتى اهمها ما يدور في المعترك السياسي وما يتعلق بالفن والادب وما يكتبه الصحف اليومية. كانت بغداد في سنوات الخمسين في مخاض وحراك في السياسة والادب والفن، فانجذب احدنا للاخر وتوطدت بيننا علاقة متينة واحب كل منا الاخر حبا صادقا يصل بيننا فكر وموقف.

كما نلتقي عصرا في مقهى البرازيلية او مقهى حسن عجمي او مقهى عارف اغا في الحيدر خانة واحيانا نقضي سهرتنا في مشرب او مشاهدة فيلم.

ويوما قال لي هامسا ان السجينة الشيوعية عمومة مير مصري ارسلت له من سجن النساء رسالة ترجوه وتطلب منه ارسال قصيدته "فجر السلام" ولم اسمع منه حينذاك انه نظم ملحمة شعرية بهذا الاسم فقراها لي واعجبت بها ايما اعجاب ثم سكت وقال خذها واكتبها انت خوفا من

في بيروت ١٩٦٠

ان تقع بيد سلطات الامن وعند ذاك اتعرض للمسائلة والاذى خاصة اذا كانت بخط يدي، فقبلت التكليف وكتبتها واحتفظت بالنسخة الاصلية التي كانت بخطه، ثم كلفني ثانية ان اكتب له قصيدته "رفيقة الطريق" ونشرها في ديوانه "انشودة المطر" باسم "يوم الطغاة الاخيرة" شارحا تحتها "اغنية ثائر عربي من تونس لرفيقته "وهناك بعض الاختلاف والنقص والزيادة عما كانت عندي علما اني احفظها عن ظهر قلب، ولا اعلم ان كانت القصيدة "فجر السلام" قد ارسلت ووصلت الى سجن النساء ام لا حيث لم اسأل بدر عنها.

بعد مدة اتصل المحامي حمزة سلمان بالسياب واقنعه بنشرها في كراس باعتبارها من نشريات حركة انصار السلام، كان ذلك في بداية سنة ١٩٥٢ وتولى كل من المحامي حمزة سلمان والمحامي عدنان عبد القادر مهمة الاشراف على طبعا وفعلا طبعت بكراس وكان الغلاف يحمل صورة طفل في المهد، الا ان السلطات الامنية كبست المطبعة وصادرت المطبوع منها، لكن اعداد قليلة منها هربت من المطبعة ووزعت سرا على عدد قليل من المهتمين بشؤون الادب وحركة السلام.

ولاعجابي بها بقيت في ذاكرتي بعضا من ابياتها واعتقد جازما ان ليس في العراق من يعرف هذه الابيات او سمع بغيرها. وارى من المفيد للقارئ او السامع العزيز ان يطلع عليها زيادة في معرفة هذا الشاعر المبدع وتخليدا لذكراه، واستميحكم عذرا ان اقرأ ما ظل عالقا في ذاكرتي منذ اكثر من خمسين عاما يقول:

لا شهوة الموت في اعراق جزار
تقوى عليها ولا سبل من النار الموت
اوهى يدا من ان يصافحها وهي التي
مدت الموتى باعمار وهي التي لمت
الاحقاب واعتصرت
مما انطوى في دجاها فيض انوار
ومست لصخر فاخظلت جوانبه
بالسنبل الغض والريحان والغار
هذي اليد السمحة البيضاء كم مسحت
جرحا وكم ازهقت انفاس جبار
وسمرت نعش طاغوت بما شرعت
كفاه من خنجر يدمي واظفار يستمر
شاعرنا.

بهذه المقدمة من الشعر العمودي الجزل ليرسم صورة للحرب واخرى للسلام وكانه يعقد مقارنة بين الدمار التي تخلفها الحروب وبين البهجة والفرح التي يصنعها السلام

يرسم فيها صورة للحرب وما يلاقيه الانسان عند نشوبها – يقول:

صور لنفسك في الخيال اباك في وسط الحريق
يدعوك بالصوت الابح
وقد تخبط كالغريق
ويمد من خلل الدخان يديه
يبحث عن طريق
وانظر لامك وهي ترقد
في التراب على قفاها
تتجاذب العقبان ثدييها
ويقفأ ناظراها زتلق من
دمها الكلاب وينخر الدود الشفاها
وتملئ زوجك وهي تركض
بين اشباه الجياع
شعثاء تلهث والرياح
تصكها دون انقطاع
حملت قميصك في ذراع
والرضيعة في ذراع
ثم يعود ليرسم لنا صورة جميلة لليلة شتائية سامرة يظللها الامن والسلام فيقول:
وكانما ردت اليه صباه اخيلة الصلاء
مازال يقرأ والصغار يضاحكونك في الخفاء
وانظر لامك اي عجب يزدهيها
عادت على الصوت الرتيب
الى الغوابر من سنيها
فتصورته فتى
يجمع ساعديه ويحتويها

والقصيدة كلها تنتقل بين الحرب والسلام صور مرعبة واخرى مبهجة. بقيت احتفظ بهذه الملحمة الشعرية المكتوبة بخط السياب سنين طويلة اعتزازا بصداقتي له وحفاظا لاثر مهم من اثاره الشعرية. ولكن كانت يد الغدر والجريمة اقوى عندما حدث انقلاب ٨ شباط سيء الذكر واحرقت مع ما احرق مما اعتز به والان اشعر بالحزن والاسى لفقدي وضياع هذا الاثر القيم لشاعرنا المبدع.

واخيرا اقول ان السياب هو احد الشعراء الذين سحقهم قدرهم وعاشوا امر التجارب واقساها سواء في الظروف الشخصية الخاصة والعاطفية والمعاشية والظروف الاجتماعية والسياسية خاصة، لكن يظل السياب طودا شامخا ونجما ساطعا في سماء الادب العربي ومنار للاجيال عبر السنين شأنه شان الشعراء العظماء امثال المتنبي والبحتري والنواسي وشوقي والجواهري وغيرهم من الشعراء الخالدين والافذاذ.

وخير شهادة لما قدمته على مسامعكم قول الكاتب والناقد الكبير الاستاذ الراحل جبرا ابراهيم جبرا في الذكرى الثامنة لوفاة السياب المنشور في مجلة الاقلام سنة ١٩٧٣.

"سيبقى بدر شاكر السياب موضوعا لحديث كبير ودرس كثير ونقد كثير لاجيال، وكلما مرت السنون على وفاته ازداد وضوح الدور الكبير الخلاق الذي لعبه شعره في الخمسينات...

لقد اعطى السياب ابعاد الماساة، وتمكن من ابداع رموز، جذورها عربية ومعانيها كونية، مما لم يتحقق في تاريخ الادب الا على ايدي اكبر الشعراء". فالسياب شاعر عاش بحق ظروف عصره، كما قدم للعراق والامة العربية ما ابدعت موهبته من اعمال شعرية زين بها جبين العراق.

نستطيع مما تقدم ان نستخلص من سيرة حياته تلك الخطوط والظلال بل الالوان التي اسهمت في رسم تلك اللوحة التراجيدية المسماة بدر شاكر السياب.

بدر شاكر السياب ذكريات الشعر والألم

عبد الوهاب الشيخلي
باحث راحل

في نهاية الأربعينيات ومطلع الخمسينيات من القرن العشرين بدأ اسم الشاعر بدر شاكر السياب يتردد في المحافل الأدبية والفنية في بغداد. وشاءت الصدف أن نعمل معا في النهار بمديرية الأموال المستوردة ومساءً في جريدة الشعب ومجلة الأسبوع. وفي عام١٩٥٧وعلى أثر عودته من لبنان أجريت معه حواراً نشر في مجلة الأسبوع قبل أن يعين سكرتيرًا لها ببضعة شهور جاء فيه: إذا قدر لك أن تلتقي الشاعر بدر شاكر السياب دون أن تعرفه من قبل، فستحسبه كاتباً بسيطاً في إحدى الدوائر، أو معلمًا خاب أمله في الترقية منذ زمن بعيد. جسم نحيل هزيل، بسيط في ملبسه، يسير بصورة مستعجلة متأبطا كتابه. اكثر قراءاته بالإنجليزية. يكره الزيف والادعاء والعظمة.

وبعد أن التقطت له بعض الصور بالكاميرا التي كنت أحملها معي دائماً لأغراض صحفية سألته عن المهمة التي ذهب من أجلها إلى لبنان والأهداف التي حققها هناك فأجاب: اعتادت مجلة (شعر) اللبنانية تقديم أمسية شعرية مساء كل خميس يحضرها شعراء لبنانيون – وقد شاءت هذه المرة أن يشارك فيها شاعر من العراق فوقع الاختيار علي فذهبت وألقيت شيئًا من أشعاري. وفي تلك الجلسة قررت الجامعة الأمريكية (قسم اللغة العربية) الاعتراف بالشعر الحر و إدخاله في مناهج الدراسة للسنوات المقبلة. وقد استغرق إلقاء الشعر من قبلي ساعة من الزمن إلا أن الجمهور طالب المزيد فألقيت قصيدة أخرى. لكنهم لم يكتفوا بذلك وطلب أحدهم قصيدة (المومس العمياء) ولما أخبرتهم أن هذه القصيدة تستغرق ساعة من الزمن أجابوا جميعًا أنهم مستعدون لذلك! وهنا سألت الشاعر السياب – هل كنت تكتفي بإلقاء القصائد دون شرحها؟ فأجاب: كنت أشرح لهم الجو العام للقصيدة، وهذه طريقة جديدة لتذوق الشعر الحر وتقريبه إلى أذهان الجماهير. وهل خرج أحدهم برأي جديد خلال تلك الجلسة؟ – نعم. لقد صرح جورج صيدح الشاعر المهجري الكبير برأي جديد حيث صار يعتقد بوجود شعر جيد بغض النظر عن أسلوبه في التعبير.

الشعراء في مرآته

كان السياب يحمل كتاباً باللغة الإنجليزية للشاعر (ت. س. اليوت) فقلت له: ما هذا؟ فقال: هذا الكتاب يعود لشاعر عظيم تعلمنا منه الكثير في مجال الشعر الحر وقد حاول بعض الشعراء العرب تقليده ففشلوا لضعف في اللغة العربية أو الإنجليزية. وهنا طلبت من الشاعر بدر السياب أن يتحدث عن تجربته الشعرية فقال: كان الحافز الأول لكتابة الشعر الحر بعد أن قرأت الشعر في اللغة الإنجليزية فلاحظت تعدد التفعيلات في أبيات الشعر وعدم انقطاع المعاني من بيت لآخر كما هو الحال في القصيدة العربية. فبدأت الكتابة وفق نسق جديد من التفعيلات مع أجواء وأفكار جديدة تنسجم مع روح العصر. وأضاف السياب قائلاً: وللحقيقة والتاريخ لاحظت أيضاً أن الموشحات الأندلسية تتسم بطابع خاص تجد في بعضه ملامح الشعر الحر. وفي عام ١٩٤٠ وفي مجلة الرسالة المصرية قرأت للشاعر خليل شيبوب قصيدة عنوانها (القصر والحديقة المهجورة) وكانت في معانيها وألفاظها وتفعيلاتها قريبة من الشعر الحر. وفي عام ١٩٤٧ وفي قصيدة (روميو وجولييت) للشاعر علي أحمد باكثير تجد هذا اللون من الشعر بشكل ملحوظ. وكنت قد كتبت في الشعر الحر عام ١٩٤٦ قصيدة عنوانها (هل كان حبًا) وألقيتها أمام طلاب دار المعلمين العالية ببغداد فلاقت استحسانًا كبيرًا وكان عبد الوهاب البياتي وشاذل طاقة بين الحاضرين أما قصيدة (الكوليرا) للشاعرة نازك الملائكة فكانت أقرب ما تكون إلى الموشح. ولكنها أصدرت عام ١٩٤٨ ديوان (عاشقة الليل) وفيه عدد لا يستهان به من الشعر الحر مع شرح وتحليل، أما أنا فقد أصدرت ديوان (أساطير) عام ١٩٥٠ وقد تضمن عددًا من القصائد التي نشرتها في مجلة البيان والعقيدة عام ١٩٤٨. وأعود فأكرر أنه كان لقراءتي للشعر الإنجليزي الأثر الكبير في التوجه نحو الشعر الحر.

وكان السياب قد بدأ العمل في الصحافة مترجمًا باعتباره يجيد اللغتين الانجليزية والعربية. وقبل غلق مجلة الأسبوع بسنة تقريباً عين سكرتيراً لها. ومن هنا بدأ يكتب القصص القصيرة وكان بعضها يدور حول أشخاص التقى بهم في قرية جيكور أو البصرة. ولم أقرأ حتى يومنا هذا من تناول هذه القصص بالنقد أو الدراسة وفيما إذا كان السياب يمكن أن يكون قصصيًا بمستوى تشيخوف الروسي أو موبا سان

السياب مع الشيخلي في جريدة الشعب

في ايام الدراسة المتوسطة

الفرنسي. ولا أستطيع الادعاء بأنني أتمكن من تقييم تلك القصص القصيرة. أما شعره فقد انتشر في أنحاء الوطن العربي وأصبح السياب من الأسماء المعروفة وكان النقاد إلى جانبه دائماً.. ومع ذلك فإن أحد العلماء الراحلين وعضو المجامع العلمية في العراق وبعض أقطار الوطن العربي أجاب عن سؤال وجهته له في لقاء إذاعي عن رأيه بالشعر الحر وبدر شاكر السياب فكانت إجابته وهو الشاعر التقليدي المحب للشاعر أحمد شوقي: إن الشعر الحر مؤامرة كبيرة على الشعر العمودي واللغة العربية!

في مجتمع بغداد

لم يكن الشاعر بدر شاكر السياب يشكو من المرض خلال السنوات التي عرفته فيها حتى ١٩٥٨، ولكنه كان يبدو نحيلاً شاحباً.. ومع ذلك فهو سريع الخطى، وكنت أحس أنه يعاني هشاشة في العظام. وكان للسياب من يشتمه ويقلل من قيمة ما يكتب من شعر.. وربما كان الشاعر كاظم جواد من ألد أعدائه وقد سمعته وهو يسبه ويشتمه مدعياً أنه تسبب في فصله من الوظيفة.

كان السياب من رواد المقاهي البغدادية حيث يجتمع مع بعض الشعراء والأدباء.. وحدث ذات مرة أنه كان يكتب قصيدة جديدة فاقترب منه شاعر مغمور ومد عنقه متطلعاً وأشار عليه أن يستبدل كلمة بأخرى فنظر إليه بدر باستغراب وقام من محله وجلس في مكان بعيد دون أن يفوه بكلمة واحدة!

كان لقصيدة المومس العمياء وهي قصيدة طويلة يستغرق قراءتها ساعة كاملة أثرها العميق في نفوس القراء.. وكنت أعتقد أنها من بنات أفكاره وليس لها وجود إلا في مخيلته إلا أن الصحفي قاسم السماوي وهو من أصدقاء السياب أكد لي أن هذه الشخصية موجودة في بغداد وقد شاهداها معاً وهي التي أوحت له بتلك القصيدة الرائعة والتي طلبها الجمهور اللبناني واضطر السياب إلى قراءتها كما أشرنا في الحوار الذي أجريناه معه.. ويبدو لي من خلال معرفتي بالشاعر بدر أنه يميل إلى الصراحة أحياناً بدليل أنه كان يقول عن الشاعر محمود البريكان وهو من مدينة البصرة أيضاً: إنه شاعر أصيل ومقتدر وكان من الممكن أن يكون شاعراً كبيراً لولا انزواؤه في البيت وعدم مزاولته للشعر إلا في حالات نادرة، وهو خيرٌ منا جمعياً.

×××××

حاول بعض الملحنين تلحين بعض قصائد السياب.. وكنت أتمنى لو أن ملحناً كبيراً كالموسيقار محمد عبد الوهاب أو بمستواه الفني قد أخذ بعض تلك القصائد بدلاً من الملحنين والمطربين الذين يفتقرون إلى الموهبة وأبسط قواعد الإبداع، لكان نصيب تلك القصائد مزيداً من الانتشار في جميع أنحاء الوطن العربي. كان السياب، قبل زواجه ينتقل من فشل إلى آخر في ميدان الحب.. وقد تبين له بعد حين أن كل من تعرف عليها كانت تأمل أن تجد نفسها في إحدى قصائده المتداولة بين الناس وخاصة في دار المعلمين العالية وبعض المجالس الأدبية. حتى تمنى أن يكون أحد الدواوين التي نشرها.

لم يكن الشاعر بدر شاكر السياب يعتني بهندامه. ولضيقٍ ذات يده، شكا ذات يوم أمامنا قائلاً: إلى متى نبقى على هذه الحال؟ ثم اقترح علينا مشروعاً قد يدر علينا بعض المال. وكنا أربعة من المحررين، ولكننا وبعد أقل من شهر نبذنا تلك الفكرة وذلك المشروع لأسباب تتعلق بشخصية الإنسان النزيه الذي ينزع إلى النجاح والعيش بطرق مشروعة.. وقد لاحظت من خلال عملي معه أنه يميل أحياناً إلى الاعتداء على الآخرين والإيقاع بهم. كما أنه لم يكن مستقراً في موقفه السياسي فقد انتقل من اليسار إلى اليمين وأخذ يطعن بزملائه القدامى من الحزبيين على صفحات الصحف اليومية باسمه الصريح وكشف عن أسرارهم الحزبية بأسلوب جعله في موضع نقد كبير من معارفه وأصدقائه.

وكان آخر لقاء لي معه في بغداد في منطقة الأعظمية (ساحة عنتر) وبعد أن تبادلنا التحية نصحني ألا أنتمي لأي حزب من الأحزاب، قال ذلك بلهجة عراقية بغدادية!! واكتفيت بالصمت وعدم الرد عليه.

×××××

كنت أتمشى ذات يوم في بغداد (شارع الرشيد) مع الشاعر عبد الوهاب البياتي في الخمسينيات من القرن العشرين. وقرب مقهى البرازيلية التقينا بالشاعر بدر السياب وتبادلنا التحية ثم ذهب السياب مسرعاً وكان كعادته يحمل كتاباً مع بعض الأوراق. وفي اليوم التالي سألني بدر: منذ متى تعرفت على البياتي وهل هو حقاً من المنطقة الشمالية للعراق وليس من بغداد فأجبته: إني عرفت عبد الوهاب منذ كنا صغاراً في المدرسة الابتدائية وكان صديقاً لأخي الصغير الذي كان يدرس في مدرسة الشيخ رفيع في باب الشيخ، أما أنا فكنت في مدرسة العوينة التي تقع قرب دكان والده في منطقة سراج الدين وكان ينتظرني عند خروجي من المدرسة. وقد لاحظت أن البياتي كان من المولعين بكتابة الشعر منذ عهد الطفولة، فقد أخرج ذات يوم قصاصة من الورق وطلب مني أن أقرأها فإذا هي عبارة عن بيتين من الشعر في الغزل.. ولما كنت أهوى الموسيقى والغناء منذ العاشرة من العمر فقد لحنت ذلك الشعر وغنيته بصوتي ونحن في طريقنا إلى البيت.. كان ذلك حوالي عام ١٩٣٧ واكتفى السياب عندما سمع ذلك بالقول: كلنا بدأنا في قرض الشعر منذ عهد الطفولة الأولى.

أعتقد أن صحة الشاعر بدر السياب بدأت تتدهور في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته القصيرة. تقول بعض المصادر إنه زار بيروت عام ١٩٦٠ وهناك طبع أحد دواوينه الشعرية وزار بعض المجلات الأدبية مثل مجلة الآداب وحوار وشعر.. ولا شك أنه التقى ببعض الأدباء والشعراء في لبنان.. كما أنه لا بد وأنه كان يراجع بعض الأطباء لمعرفة سر مرضه والعلاج الذي قد يساعده على الحياة البائسة التي كان يحياها.. واستمر في كتابة الشعر الذي كان هاجسه الأول آناء الليل وأطراف النهار.

إن الشاعر بدر شاكر السياب المرهف الإحساس مات فقيراً معدماً في المستشفى الأميري في دولة الكويت التي قامت برعايته وأنفقت عليه خلال مدة علاجه.. وعاد جثمانه إلى قرية (جيكور) في البصرة في يوم من أيام الشتاء الباردة الممطرة. وقد شيعه عدد قليل من أهله وأبناء جلدته وبذلك انطفأت شعلة الإبداع.. وسكنت آلامه إلى الأبد.

مجلة الاذاعة والتلفزيون

حاول بعض الملحنين تلحين بعض قصائد السياب.. وكنت أتمنى لو أن ملحناً كبيراً كالموسيقار محمد عبد الوهاب أو بمستواه الفني قد أخذ بعض تلك القصائد بدلاً من الملحنين والمطربين الذين يفتقرون إلى الموهبة وأبسط قواعد الإبداع، لكان نصيب تلك القصائد مزيداً من الانتشار في جميع أنحاء الوطن العربي. كان السياب، قبل زواجه ينتقل من فشل إلى آخر في ميدان الحب..

بدر السياب

نجيب المانع
اديب راحل

انطلق بدر شاكر السياب نحو الشعر الحديث من افضل المنطلقات فهو حين افتتح بصحبة نفر آخرين عهد التعبير الجديد كان ينطلق بولاء للتراث العربي كله ولحرصه على ان يمتد التراث حيا نابضا عبر الحاضر فقد وهبه اسلوبا معبراً عن الحاسية المعاصرة واستلهم طريقة في الاداء انصهرت فيها كل المؤثرات التي تعرضت لها روحه المتطلعة القلقة، وغالبا ما كان انصهارها مثمراً الا في احيان قليلة اذ تتحجر لديه الرؤيا فتتوقف عند رموز موحية ايحاء كاملا لانها كانت مرادة ارادة مباشرة. ولكنه في الجانب الاكبر من انتاجه يشبه الرسام الذي يوغل في المغامرة الفنية الحديثة بسبب من قوة سيطرته على ادواته التقليدية لا بسبب التهاون وقلة المتانة وضعف الباصرة.

كان بدر فاتحا طموحا في التعبير واللغة والرؤيا والشكل موسيقى الشعر وابعاد الوجدان وقد ترك اعلام ظفره في كل ميدان من هذه الميادين وبنى في كل منها صرحا يشهد له بالسبق على الكثيرين الذين تناولوها من بعده.

وشان الرواد، فان بدرا يمتاز، فضلا عن جودة فنه بانه خلق شكلا يستطيع الاخرون ان يتوارثوه عنه ليمضوا في المغامرة التعبيرية قدما، على العكس من الشعراء الكلاسيكيين المجودين في العصر الحديث الذين قلما ازدادوا ابداعا كانت اجادتهم مدعاة لايصاد الباب بوجه من يليهم كالجواهري مثلا. ان الجواهري قمة الشعر الكلاسيكي فلا يستطيع شاعر، على ما اعتقد، ان يتناول منه رسالة شعرية على ان القارئ يتناول منه اروع رسالة شعورية. ان الشاعر الذي يريد ان يكتب على غرار الجواهري لا يطمح الا ان يكون قرية على سفح جبل قمته الجواهري ليس الجواهري رائدا ولكنه واصل عظيم وكان بدر واحدا من الرواد في النهضة الشعرية العربية الحديثة.

انشودة لمطر والموهس العمياء والاسلحة والاطفال والنهر والموت والى جملية بوحيرد وغيرها من القصائد انما تشكل المغامرة ذات الامتداد الى امام. انها ليست نهاية رحلة ولكنها ابتداع خط جديد لرحلات جديدة وهذا فضل بدر السياب الذي اسبقه على جيل الخمسينات من هذا القرن ومن يستطيع ان يؤثر في جبل ما بعمق تأثير بدر فقد القى بظل متطاول يمتد الى اجيال كثيرة لاحقة. ولقد قيل غير قليل عن عناية السياب بالاسطورة واظنني لن اشتط عن الحق بعيدا ان قلت ان الاسطورة التي كلف بها بدر السياب لم تجد افضل تحقق لها في غير تجسيد المكان تجسيدا اسطوريا والمكان هو قريته التي نشأ جيكور ونهرها بويب فهو هناك حيوية وعفوية وعذوبة والتياع وحنين.

وقد قيل عن اثر ت. اس. اليوت فيه الشيء الكثير من الاطناب ومعرفتي الشخصية ببدر تجعلني اميل الى انه كان ينفعل بادب ت. س. اليوت الشعري اكثر مما كان يتعقله وهذا امر حسن ولكن ما يريده جمهرة من النقاد هو ان يقال ان السياب ابتغى من ت.س. اليوت اكثر من الايماءة الموحية واللمسة المثيرة. كانت اروع لمسات ت.س. اليوت عليه قصيدة الارض الخراب التي وصف فيها الشاعر الغربي موات الحياة الحديث وربطها بالاساطير القديمة وتحدث عن الموت في الحياة وعن موضوع عالجه السياب مرارا واجاده في الغالب الا وهو موضوع الحياة عن طريق الموت والفداء، وان الموت ميلاد وعالج السياب هذا الموضوع ايضا بالتماس مع الفكرة المسيحية القائلة بان صلب المسيح كان حياة ويقظة للبشرية وكان ت.س. اليت قد عالج هذا الموضوع على نحو درامي في مسرحيته الشعرية الرائعة "جريمة قتل في الكاندرائية، حيث كان الناس المحيطون برئيس الاساقفة ببكيت لا يرغبون في موته لانه يوقظهم بل كانوا يريدون حياة كيفما اتفق لا تضحية فيها ولا فداء فالفداء ايقظ ووعي وارتطام بالمسئولية ارتطاما يبعد عن الانسان كل راحة وكل ارتخاء.

واعظم رسالة يحق لنا ان نتناولها من السياب في ايامنا هذه ان الفداء حياة لا للفادي وحده وانما للذين يريد الفادي ان يوقظهم من نومة اهل الكهف ولقد مات السياب قبل ان يرى اروع تحقيق لهذه الفكرة المبنية في شعره حيث يقوم الفائيون كل يوم بتحرير العرب كلهم بكل موت يزرعونه في صحراء رضانا عن انفسنا لتنمو الخضرة لا حد لامتدادها ويكون الانسان في هذه القطعة من الارض بشرا سويا.

من الدفتر..

رشدي العامل

رن جرس التلفون في المنزل، اخذت السماعة، كان صوت الشاعر سعدي يوسف على الطرف الآخر:
"رشدي" تعال حالا الى الاتحاد، بدر هنا وهو يريد لقاءك.
في زاوية شاحبة الضوء من مقر اتحاد الادباء العراقيين كان يجلس. اذكر انني عانقته، مغرورق العينين. كان بيننا ستار من الصمت القلق. سرعان ما استطعت تبديده عندما طلبت قناني البيرة، وعندما بدا السياب يرتشف بجذل.. وبدأنا نضحك، في درجة من الثمل انستنا الجسور التي قطعت بيننا منذ زمن، واعادت الينا وهج الصداقة والالفة والصحبة الطويلة.
كان السياب قد قطع الضفة التي كنا نقف معا على ساحلها، واختار ان يركن الى ساحر آخر، ولم يكن هذا يؤثر في كثيرا، ولا في الكثيرين من الذين يعرفون قيمة السياب الحقيقية، قيمته الرائعة، الفريدة، المتميزة، في الشعر العربي المعاصر.
كان قد كتب مقالا في جريدة "الايام" لصاحبها الاستاذ عبد القادر البراك تناول فيه الشعر العراقي المعاصر، وهاجم قضية الالتزام في الشعر، كما هاجم اغلبية الشعراء، واستثنى ستة، وكنت واحدا منهم، اعتبر ان اسماءهم تقف شامخة على سواها.. وقد رددت على السياب في عدد آخر من "الايام" واظن ان اثره في نفس السياب كان عنيفا عندما ذكرت انني ارفض الثناء على جسرا يعبر عليه لثلب القضية التي اؤمن بها. وانني ارفض هذا الثناء من السياب.
غير ان تلك الجلسة تلك الامسية الحلوة في بهو الاتحاد بددت الضباب الذي حجب رؤيتنا زمنا، وبدا بدر، كعادته عندما تأسره امسية ورفقة وكأس وشعر وتوثب، بدا طليقا منفتحا، هشا، غير انه غير قابل للكسر.
لقد ناقشته طويلا.. وتوالت عليه اسئلتي:
– بدر لماذا تكتب المقالات السياسية؟ بدر لماذا تخفض قيمتك؟ بدر.. لماذا.. لماذا؟
وكان حريصا على الاصغاء، حرصه على الانفلات السريع من المحاصرة التي وجد نفسه داخلها بين اصدقائه القدامى.
في تلك الليلة، اذكر انني همست لسعدي بان خيال السياب يحوم على الضفاف الاولى، كما يهوم شعره الرائع حول قريته "جيكور"، وان جيكور تمثل كل الاشياء الجميلة الضائعة، الطفولة والسعادة والعفوية.. كل هذه الاشياء التي يخفيها ضباب الزمن.
لا اذكر بالتحديد اين ومتى التقيت بالسياب ربما في المكتبة التي كانت في باب المعظم، وربما في مقهى الاندلس في نفس المكان. ولكن ما اذكره ان علاقتنا مضت وادعة في اشد ايام الابتسار في الاحكام على الشعر والشعراء. وحتى عندما كان البعض يزن الشعر بميزان من الخوص.. ولقد استمرت هذه العلاقة، علاقتي انا التلميذ الذي يحاول ان ينقل خطوات اولى باستاذ كبير وصديق آالفه وبانس الى ويفهمني .
كنا قد افترقنا زمنا ، هو في الضفة الاخرى وانا في الضفة التي اختار مغادرتنا.. كان عبء العمل السياسي والصحفي يشد اوردتي بغلظة.
آه من تلك الليلة، جلسنا في محل ما. كان معنا الشاعر حساني علي الكردي. شرب بدر حتى ثمل تماما، كنت اذهب به، فاغسل وجهه، وكان يعود ليطلب شرابا من جديد، وعندما يشرب اغسل وجهه من جديد. شعرت انه يقف بين الصحو الاخرس الجامد، وبين الاستذكار الثمل وكان يتحدث كما لو كان طالبا صغيرا. قلت له:
– بدر، انك تستطيع ان تقف على الارض التي تعجبك، على ان تتاكد من صلابة تلك الارض، وسنظل اصدقاء يا "ابا غيلان" مهما كانت المياه التي تفصل ارضينا واسعة وهادرة.
وليلتها بكى بدر.. بكى السياب بيني وبين الصديق الشاعر حساني.
ذكريات متناثرة، من دفتر الذاكرة الثمين.. اقساها وامرها واصعبها على التصديق ان بدر السياب قد مضى الى الابد، واننا لم نسمعه بعد الان وانني لن اراه ابدا. لن ارى ذلك الشبح الخاوي الذي كان يدب على الارض بخطى المتسولين، والذي وهب الشعر العربي اعمالا هي في القمة من هذا البناء الضخم والذي مات وحيدا مهجورا وترك لبعض التجار فرصة المضاربة باسمه الكبير.. وعفواً يا ابا غيلان.

عن مجلة الاداب اللبنانية

> كان السياب قد قطع الضفة التي كنا نقف معا على ساحلها، واختار ان يركن الى ساحر آخر، ولم يكن هذا يؤثر في كثيرا، ولا في الكثيرين من الذين يعرفون قيمة السياب الحقيقية، قيمته الرائعة، الفريدة، المتميزة، في الشعر العربي المعاصر.

مع الاثري

مع عبد الرزاق محيي الدين

الشاعر الكويتي علي السبتي..

يتحدث عن السياب ومرضه..

قبر السياب في مقبرة الحسن البصري

هذه التساؤلات وغيرها ظلت تعيش وتكبر في صدور الكثيرين من محبي شاعرنا السياب والأجوبة عليها التي جاءت على ألسن الباحثين والدارسين لحياة وموت الشاعر السياب لم تكن كافية على كثرتها . اذ بقيت هناك تفاصيل صغيرة تدخل في الخزانة الخاصة والشخصية لشاعرنا

والذين يعرفونها اقفلوا صدورهم عليها لكي لا تخدش سمعة السياب او يساء فهم سلوكه وتصرفاته وهو يقترب من الرمق الأخير، لكن بعد مرور فترة طويلة على وفاته تكسر قفل الإسرار وراح الذين يعرفون تفاصيل صغيرة يكشفون عنها لانها أصبحت في عداد الوثائق التاريخية..

الشاعر علي سبتي يروي في هذا الحوار الذي نشر في مجلة الف باء قبل اكثر من ربع قرن وفيه يسلط الشاعر الكويتي الراحل السبتي أضواء جديدة على الأيام التي عاشها السياب .. قال الشاعر السبتي:

لقد كان السياب صديقي وكنت قبل ان التقي به قبل اكثر من ربع قرن معجباً الى حد كبير بشعره.. وعندما التقيته للمرة الأولى في البصرة ازداد إعجابي به وأصبح بعد ذلك من اعز أصدقائي ثم باعدتنا الأيام والتفرقة الجغرافية بين العرب الى ان جاء يوم وقع إمام عيني مقال منشور في

مجلة "الحوادث" اللبنانية بقلم الأستاذ الياس سحاب يتحدث فيه عن بدرشاكر السياب المريض الذي لايحصل على العلاج الكافي وانه مهمل في المستشفيات وان طريق الموت يتسع إمامه ..

وقد هز مشاعري هذا المقال وتألمت كثيراً على بدر فكتبت بدوري مقالا في مجلة صوت الخليج الكويتية طلبت فيه من وزير الصحة الكويتي ان يتبنى علاج بدر شاكر السياب في احد المستشفيات الكويتية.. وفعلا اهتم الوزير بما جاء في مقالي حيث اتصل بي طالباً عنوان بدر للاتصال به وبعد بحث واستقصاء علمت ان بدرا كان يتلقى العلاج في مدينة درم البريطانية وقد غادرها الى جهة مجهولة وأخبرت هذا وزير الصحة وأضفت إنني سوف اعلمه بأية معلومات جديدة عن مكانه فور حصولي عليها. وبعد فترة كنت في زيارة لمدينة البصرة وعرفت منها ان بدراً يرقد في المستشفى الجمهوري فزرته هناك ووجدت حالته الصحية تدعو الى الأسف .. لاعلاج .. لا نظافة.. لا متابعة ..كان كشجرة يبست أوراقها ولاتحظى بأية اهتمام فعرضت عليه الانتقال الى مستشفيات الكويت ..

× وهل المستشفيات الكويتية في تلك الفترة كانت احسن من العراقية من حيث الاختصاصات الطبية والاهتمام؟

– كلا انا لا أقول أنها أحسن من العراقية ولكن مجرد نقل المريض بدر من مكان يشعر فيه بالإهمال والعلاج فيه غير كاف ، إلى مكان يزرع نفسه بالشفاء وهذا يعني ان عملية النقل كانت من اجل رفع معنوياته لاغير.. إضافة الى توفير غرفة نظيفة خاصة به مع اعتناء مباشر من قبل طبيب متخصص وممرضة تهتم به .

بعد طرح الفكرة على بدر وافق على الفور فاتصلت هاتفيا بوزير (الصحة) الكويتي واخبرته بعودة بدر الى البصرة وموافقته على الحضور لتلقي العلاج في الكويت فرحب الوزير به وقال : نحن بانتظاره ..

وفعلا بعد ايام قلائل تم نقل بدر من البصرة الى الكويت ..

× متى كان ذلك؟

– لاتذكر اليوم بالضبط ولكن حسب معلوماتي انه كان في احد ايام شهر حزيران عام ١٩٦٤ .

× من كان في استقبال بدر في الكويت؟

– الاستاذ ناجي علوش والاستاذ فاروق شوشة وانا.. وأخذناه أولا إلى مستشفى سالم الصباح.

× وهل نال العلاج السريع فيها ؟.

– لقد تشكلت في المستشفى لجنة طبية خاصة للإشراف على علاجه.. المرحوم بدر جاء بكل تقاريره الطبية التي تشير الى وضعه المرضي وبضمنها تقارير مستشفى البصرة الجمهوري ومستشفى "درم" في بريطانيا مع تقارير اخرى من بيروت ..

اللجنة الطبية الخاصة توصلت الى نفس قناعات الأطباء العراقيين والبريطانيين حول مرض بدر وأكدت بان علاجه سيطول لتدهور صحته كما انه يحتاج الى عملية جراحية سريعة يمكن ان تنجح لو أجريت في المستشفى الاميري فاتصلت بالجهات الصحية وحصلت الموافقة على نقله .. وفي المستشفى الأميري اشرف على علاجه طبيب متخصص بالامراض الباطنية اسمه محمد ابو الشوك من القطر المصري ومساعده الدكتور عبد الله مبارك الرفاعي ... في هذا المستشفى اكدت ايضا اللجان الطبية ما جاء في التقارير السابقة عن مرض بدر.

× ما المرض بالضبط ؟.

– مرض بدر الشلل النصفي

× وما اسباب هذا الشلل؟.

– يقول الاطباء ان الشلل حدث لسببين.. الاول مرض مزمن.. والثاني.. وراثي..

× وايهما الذي اقعد (بدر) ؟.

– تشير المعلومات والتقارير التي تستند إليها ان العامل الوراثي هو السبب..

السياب وهوّس الحب..

× يقال ان (بدر) كان في حالة حب مستمرة حتى وهو على فراش المرض..

– نعم لقد كان المرحوم بدر يرتاح كثيرا لهذه الحالة وانأ لا اسميها حبا وانما شعور بالارتياح والمحبة من مريض لا يرجى شفاؤه مع من تعالجه من الممرضات.

×هذا رأيك انت ولكنني اريد ان اعرف شعور بدر ازاء الطرف المقابل من النساء .؟

– لااريد ان ادخل في التفاصيل ولكنني اعترف ان روحه كانت "خضرة" – حتى في أيامه الأخيرة ..

× كيف وصلت الى هذه القناعة؟

– من خلال أحاديثي معه عن النساء والحب والجمال.

وقد حدثني مرة واحدة عن علاقاته النسائية لممرضة لبنانية اسمها ليلى تعرف عليها عندما رقد ذات مرة في مستشفى بيروت وكانت ليلى الممرضة المسؤولة عن علاجه... لقد كانت تعطف عليه وهو يفسر من جانبه هذا العطف بانه حب وقد تأكد لي ذلك عندما التقيت ليلى في بيروت صيف ١٩٦٤.

× كيف

–لقد أخبرت بدرا وهو راقد في المستشفى الأميري بأنني ذاهب الى بيروت لفترة قصيرة فطلب مني من أمر على المستشفى اللبناني واسلم على الممرضة ليلى التي يحبها وتحبه

× وهل التقيت ليلى وحدثتها عن بدر؟

– نعم قابلتها وحدثتها لكنها قالت انها لا تحبه وان كل الذي بينهما عطف من ممرضة على مريض يحتاج الى رعاية خاصة ... جوابها هذا آلمني كثيرا لان بدرا كان يعتقد انها تحبه بينما الحقيقة كما روتها ليلى لي على عكس ذلك .. الا إنني وبسبب حبي الكبير لبدر قررت ان أعالجه نفسيا وان اجعل قلبه يستمر نابضاً بالحب ولو عن طريق الكذب عليه من جانبي.. ولهذا قلت لليلى ان بدرا يحبك.. قالت : ان ما بيننا لا يمكن ان يسمى حبا فهو كما قلت لك مجرد علاقة بين ممرضة ومريض.. ولكنه بحاجة الى حبك ؟ فقالت : وماذا باستطاعتي ان افعله له ؟ قلت : الكثير. اكتبي له اولا بأنك تتذكرينه

فأجابت : هذا محال... فقلت : أرجوك هذا ينفعه كثيرا ويساعده على استرجاع أنفاسه وقد ينقذه هذا من الموت الذي يحاصره

فقالت : ماذا تريدني ان افعل؟ أجبتها: اكتبي له رسالة تستفسرين فيها عن حالته الصحية وتعبرين في سطورها عن اشتياقك له .. فقالت : انا على استعداد ان اكتب ما تريد وسأكتب كل ما طلبته مني...

في اليوم التالي سلمتني الممرضة ليلى رسالة إلى بدر وأخذتها منها شاكرا لها.

وبعدها غادرت لبنان الى الكويت وفي لحظة اللقاء الأولى معه سألني بدر: هل قابلت ليلى ؟ وما إخبارها ؟..

ضحكت وقلت له وانا أمد راسي إليه، هذه قبلتي أولا لمناسبة عودتي من لبنان وهذه القبلة الثانية من ليلى طلبت مني ان أطبعها على خديك .. فرح بدر كثيرا بهذا الكلام وارتسمت على وجهه ابتسامات عريضة مشرقة غطت كل وجهه وطلب مني ورقة كتب عليها على الفور قصيدة عنوانها ليلى وهي من أجمل قصائده الغزلية ..

بعد "ليلى" ..

قلت لعلي سبتي بعد قصيدة ليلى والعودة من بيروت اشتد المرض على بدر ولما كنت قريبا منه .. هل يمكن ان تتذكر أخر كلماته وقصائده ؟

– مع مضي الأيام وانتهاء اشهر الصيف وبداية الخريف اشتد المرض عليه وأتذكر إنني في احد الأيام دخلت عليه وكان يردد كلمات يريد ان يكتبها على شكل قصيدة موجهة الى الإمام علي ابن ابي طالب(ع) يستنجده فيها ليعينه على ان يتحمل آلام المرض..كما كتب قصيدة أخرى رفعها الى الأمير عبد الله السالم الصباح وهي في الحقيقة رسالة على شكل قصيدة يرجو فيها امير الكويت المساعدة في إرساله إلى سويسرا لتلقي العلاج فيها لانه علم ان هناك أطباء باستطاعتهم القيام بانقاذه..

× واين هذه القصيدة؟

– لقد أخفيتها عندي لفترة من الزمن وعلى الأخص بعد وفاته لأنني لم أحبذ نشرها حرصا على سمعة صديقي الشاعر التي لا اريد الاساءة اليها ولكن بعد مرور أكثر من عشرين سنة على وفاته طلب مني " جهاد فاضل" المحرر الثقافي في صحيفة "الحوادث" اللبنانية ان ينشرها فأعطيته إياها ونشرها ، فأحدثت ضجة في الأوساط الثقافية على امتداد الوطن العربي وراح بعض النقاد والأدباء يسبون السياب وينتقدونه بشدة لأنه كتب هذه القصيدة التوسلية..

× هل فقد بدر شاكر السياب ذاكرته في أيامه الأخيرة؟

– ليس بشكل كامل فقد كانت تصيبه حالات من الغيبوبة يتكلم من خلالها من دون وعي ... أي انه كان (يهذي) وفي الأول من كانون أول من عام ١٩٦٤ أي قبل وفاته بثلاثة أسابيع زرته الى المستشفى وكانت الممرضة بجانبه تعطيه العلاج فنظر إليها بغضب وقال اطردها من الغرفة .. كما كان في آخر أيامه يقرأ الشعر مع نفسه باللغة الانكليزية وقد حاولت ان أسجل له بعضها بصوته الا إنني لم استطع لعدم وضوح صوته .. لقد كان بدر شاكر السياب شاعراً عاطفياً في كل شيء وكانت حياته غنية بالشعر والالم والمعاناة والخوف . – هكذا حمل معه أمراضه وتناقضاته ومشاعره الحزينة ورحل الى العالم الآخر ليترك بعده الأقلام تتكلم عنه وتكتب عن هذا الشاعر الذي صنع الشعر الجديد ومات قبل ان يشاهده صرحاً تمتد أعمدته في كل جزء من الأرض العربية.. (وتنتهي المقابلة).

عن مجل الف باء، ملحق خاص عن السياب

المعقل ٢٤-١٠-٦٢

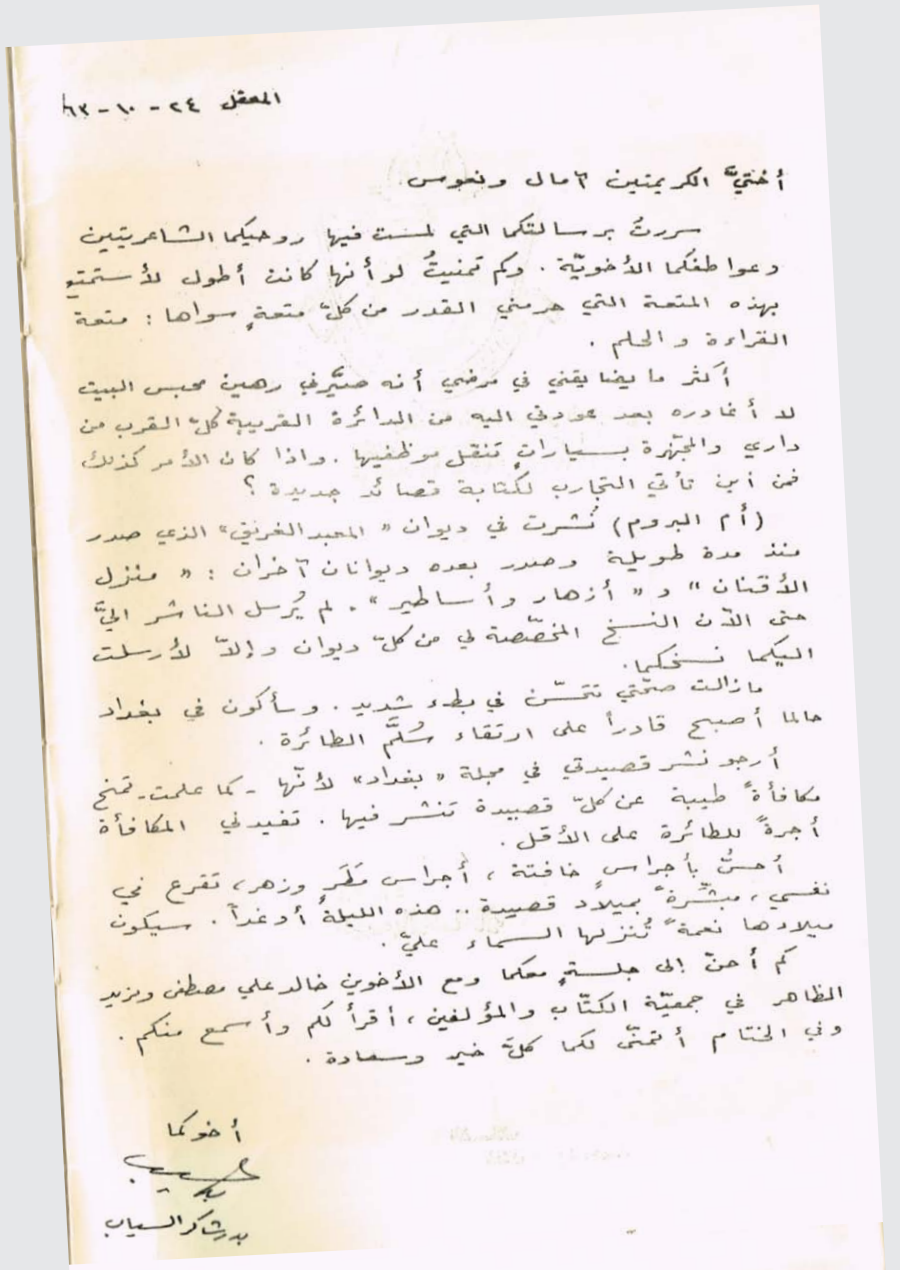

أختيّ الكريمتين آمال ونجوس

سررت برسالتكما التي لمست فيها روحيكما الشاعرتين وعوا طفكما الأخوية . وكم تمنيت لو أنها كانت أطول لأستمتع بهذه المتعة التي حرمني القدر من كل متعة سواها : متعة القراءة والحلم .

أكثر ما يضايقني في مرضي أنه سيتركني رهين محبس البيت لا أغادره بعد عودتي اليه من الدائرة القريبة كل القرب من داري والمجهزة بسيارات تنقل موظفيها . واذا كان الأمر كذلك فمن أين تأتي التجارب لكتابة قصائد جديدة ؟

(أم البروم) نشرت في ديوان « المعبد الغريق» الذي صدر منذ مدة طويلة وصدر بعده ديوانان آخران : « منزل الأقنان » و « أزهار وأساطير » . لم يرسل الناشر الي حتى الآن النسخ المخصصة لي من كل ديوان وإلا لأرسلت اليكما نسخكما.

مازالت صحتي تتحسن في بطء شديد . وسأكون في بغداد حالما أصبح قادراً على ارتقاء سلم الطائرة .

أرجو نشر قصيدتي في مجلة « بغداد» لأنها - كما علمت - تمنح مكافأة طيبة عن كل قصيدة تنشر فيها . تفيدني المكافأة أجرة للطائرة على الأقل .

أحس بأجراس خافتة ، أجراس مطر وزهر، تقرع في نفسي ، مبشرة بميلاد قصيدة .. هذه الليلة أو غداً . سيكون ميلادها نعمة تنزلها السماء عليّ .

كم أحن إلى جلسة معكما ومع الأخوين خالد علي مصطفى ويزيد الظاهر في جمعية الكتاب والمؤلفين ، أقرأ لكم وأسمع منكم .

وفي الختام أتمنى لكما كل خير وسعادة .

أخوكما

[توقيع]

بدر شاكر السياب

المعقل في ١٤/٢/٦٤

أخي الأعز جبرا .

وبعد فقد صرعني المرض حتى لا أقوى على الكتابة . المهل مازلت في المستشفى صريع اصابة حادة - كانت خطرة - بذات الرئة . والآن بعد أن خف المرض وكاد يزول ، صرت أشكو من سلوخ وكدمات في ظهري بسبب النوم الطويل : لا عليك! كل شيء سيتحسن ان شاء الله .

اذا تحسنت حالتي قليلاً فسآتي الى بغداد بعزم الله لأراجع الدكتور عني كمال - بلغه تحياتي - وسنلتقي دائماً ونتحدث عن كل الأشياء التي نحب التحدث عنها .

رسالتك قبل الأخيرة هزتني الى الأعماق لما تجسم فيها من نبل وأخوة صادقة . ماذا تكتب هذه الأيام ؟ ثم أين رسامنا الذي وعد بأن يرسم صورة الغلاف لـ « شناشيل ابنة الجلبي » ؟

قبلاتي لسدير وياسر ، تحياتي للأخت أم ياسر ، سلامي لكافة الاصدقاء .

المخلص

[توقيع]

السياب

« الباب تقرعه الريح » و « صوت من القبر » نشرت بعنوان « وتصلب البحار الى القرار »

رسائل السياب الى شقيقته

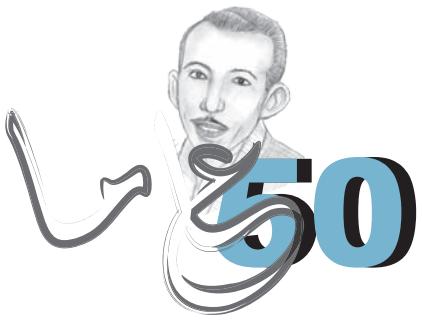

بدر شاكر السياب في أيامه الأخيرة

عبد اللطيف اطيمش
باحث واديب

عندما قرأ السياب شعره امام الجمهور

هذه المقالة عن الشاعر الرائد بدر شاكر السياب، تحاول رسم بعض الذكريات الشخصية واللقطات التي سجلتها الذاكرة عنه في أوقات وأماكن مختلفة، وهي انطباعات كانت في الأصل مجموعة أفكار في أوراق مبعثرة وقصاصات من ذكريات يومية، سجلتها قبل أكثر من خمسين عاماً، لتكون جزءاً من مادة أدبية لسيرة ذاتية، ظلت مؤجلة سنة بعد أخرى، أنوي تدوينها عن طفولتي وحياتي مع الأدب والأدباء، والناس والأصدقاء الذين عرفتهم في أماكن شتى من العالم.

وقد حرصت أن أنقل معي أينما ذهبت، تلك المفكرات اليومية المسجلة في جذاذات، أصبحت صفراء ومهترئة لطول العهد، لأنها تشكل المادة الأساسية المدونة عن ذكريات الماضي. أما القسم الأكبر منها فهو مسجل في الذاكرة، التي رغم ما أصابها من الوهن والتشتت بمرور السنين وتقدم العمر، ظلت لحسن الحظ محتفظة بشيء من وهجها وقدرتها على تخزين ماضي الأحداث والأسماء وتفاصيل المشاهد وأماكن الذكريات.

ولهذا وبعد أكثر من نصف قرن من الزمان، فأنا أعتذر للقراء، إن وقع في هذه الذكريات شيء من الالتباس في الأسماء أو التواريخ أو تسلسل الأحداث، لأنني في الحقيقة أكتب من الذاكرة عن عالم بعيد منسي لا يمكن إستعادته، وعن حياة عبرت وإختفت، ولم يبق لها وجود إلا في الذاكرة المتعبة.

أكتب عن أناس تعرفت عليهم في ظروف عاصفة، وجمعتني مع بعضهم صداقة حميمة، شكلت بمرور السنين جزءاً من حياتي وذكرياتي، بعضهم غيبهم الموت، وبعضهم لا أعرف أين هم الآن، وأين قذفت بهم الأيام، مع حسرة دائمة وعميقة في القلب، وأمنية شبه مستحيلة في أن أراهم ثانية وأستعيد معهم ذكرى تلك الأيام .. ألا سقياً لتلك الأيام، ورعياً لذاك الزمن الذي لن يعود .

هذه المقالة في تذكر السياب، أحاول أن أسجل فيها ما بقي منه في ذاكرتي منذ لقائي الأول به في بغداد، ولقائي الأخير به في الكويت.ولابد من الإشارة هنا إلى أن أهم محفزاتي على كتابة هذه الذكريات الشخصية، هو إلحاح وتشجيع بعض أصدقائي الأدباء، وعلى رأسهم الشاعر أمجد ناصر الذي ما فتئ ، كلما تذكرنا السياب يسألني: متى يحين وقت الكتابة؟ فكان دائماً يؤكد على ضرورة كتابة هذه الشهادة التاريخية ونشرها قبل فوات الأوان، نظراً لصلتها الأدبية والتاريخية بمرحلة شعرية مهمة في العراق، وبحياة السياب خاصة ولا سيما أيامه الأخيرة ورحيله بعيداً عن وطنه.

وللأمانة التاريخية لا بد أن أشير إلى أني لست من جيل السياب، مع أن صديقي الشاعر الكبير بلند الحيدري قربني إليه (بسخاء ومحبة) حين كتب في جريدة 'المساء' الجزائرية 'عام ١٩٨٤ قائلاً: (على مرمى ذراع من تجربة بدر شاكر السياب وزملائه في الحداثة الشعرية العربية، غب الأربعينيات من هذا القرن، ولدت قصيدة الشاعر العراقي، فكان لها أن سعت سعي قصائدهم في تعزيز وتوطيد مصطلح شعري جديد، يخرج بجديدهم لغةً ومضموناً) .. والحقيقة أن تجربتي الشعرية أبعد زمناً من مرمى تلك الذراع، لأنني من جيل الستينات (برغم اعتراضي على استعمال هذا المصطلح) وإنها لم تكن إلا امتداداً طبيعياً لما تعلمناه من تلك المدرسة الشعرية الرائدة، التي مثلها السياب ونازك وبلند والبياتي ولميعة عباس عمارة . كانت الأقدار وظروف الشعر هي التي قادتني إلى التعرف على السياب لأول مرة في دار المعلمين العالية وأنا طالب بجامعة بغداد عام ١٩٥٧، والأقدار نفسها هي التي ساقتني ثانية لكي أراه ولآخر مرة وأشهد أيامه الأخيرة وموته في الكويت، وأشاهده راقداً في المستشفى الأميري وهو مصاب بأمراض شتى حار بعلاجها الأطباء، وهو لا قبل لجسمه النحيل الضعيف بتحملها. فقد وصل شبحاً وهيكلاً عظمياً لا يقوى على المشي ولا يتحرك إلا بمشقة، فأدخل المستشفى على الفور. ربما كنت الوحيد من الأدباء العراقيين- باستثناء الشاعر العراقي الكويتي محمد الفايزالذي شهد مأساة موته وأدرك عذابه ومحنته في غربته..

كان ذلك في أواخر عام ١٩٥٧ حين دعونا السياب، أنا وزملائي في اللجنة الثقافية بدار المعلمين العالية، لإقامة أمسية شعرية، ونشرنا إعلاناً في الصحف العراقية عنها، لتكون دعوة عامة للجمهور. لبى السياب الدعوة بكل ترحاب، وقال إنها فرصة له لتذكر أيامه في الكلية. جاء بصحبته الشاعر محمود الريفي وصديقه الشاعر راضي مهدي السعيد، صاحب ديوان 'رياح الدروب' الذي كان صادراً لتوه بمقدمة لبدر شاكر السياب. إستقبلناه بباب الكلية مرحبين أنا وأعضاء اللجنة الثقافية وفي مقدمتهم حميد الهيتي (المذيع الذي صار بعد ذلك عميداً لكلية الآداب بالجامعة المستنصرية) إضافة الى عدد من المعجبين من الطلبة والطالبات.

كان فرحاً بهذا الاستقبال، وبدا عليه شيء من الخجل والارتباك، ربما لأنه لم يكن يتوقع هذه الحفاوة من الطلبة ومحبي الشعر من الجيل الجديد. وحين قدمني له صديقي الشاعر راضي مهدي السعيد، ذاكراً إسمي، قال السياب: 'أنا أعرفك' فدهشت وقلت له: 'كيف تعرفني يا أستاذ بدر'؟ قال:'أعرفك من خلال الريبورتاج الذي نشرته في الأسبوع الماضي جريدة

'البلاد'عن شعراء دار المعلمين العالية.

ثم أثنى على القصائد المختارة. تذكرت ساعتها ذلك التحقيق الأدبي الذي أعده الكاتب والصحافي أحمد فياض المفرجي لجريدة 'البلاد' التي كان يصدرها (رفائيل بطي)عن الشعراء الشباب في 'العالية' مع صور ونماذج من القصائد.

ثم سألني: هل كنت تنشر في جريدة البلاد؟ قلت: نعم، بعض القصائد أرسلتها من 'الناصرية'وأنا في الثانوية. قال: أتذكرك أيضاً من تلك القصائد. فأيقنت أن السياب كان متابعاً لما يدور في الصحافة الأدبية، لا يفوته شيء من أخبارها وما تنشره من شعر وأدب، وخاصة ما يتعلق منها بالنشاط الثقافي في دار المعلمين العالية آنذاك، فهي مكان ذكرياته وبداية تفتحه الأدبي.

ما زلت أذكر تلك اللحظة التي اعتلى السياب فيها المنصة، مرتدياً بدلة رمادية فضفاضة، لم تكن مناسبة أبداً لجسمه النحيل، أخرج مجموعة أوراق من جيبه الأيمن الكبير، بدأ يرتب صفحاتها. وبدلاً من أن يضعها فوق الطاولة الخشبية أمامه ويقرأ بارتياح، فضل أن يمسك الأوراق بيديه تاركاً الطاولة، متقدماً قليلاً على خشبة المسرح وبدأ يقرأ وهو واقف، رغم الألم الذي كان يتعب ركبتيه، والذي تطور لاحقاً بسبب إصابته بالسكري.

ألقى السياب مجموعة من قصائده، وعلى رأسها قصيدته المشهورة عن بورسعيد، وهي آخر قصائده الطويلة التي كتبها عام ١٩٥٦ بعد العدوان الثلاثي على مصر :

من أيما رئة، من أي قيثار
تنهل أشعاري

وكان من بين أبياتها بيت فيه مديح لجمال عبدالناصر:

'يا أمة تصنع الأقدار من دمها لا تيأسي
إن عبدالناصر القدرُ'

حيث كان عبدالناصر يومها في أوج مجده وشهرته، بطلاً للقومية العربية وسط احتدام الشعور الوطني في العالم العربي، ونهوض الحركات التحررية ضد الإستعمار وخاصة في العراق، أيام حلف بغداد، ونوري السعيد، وتشكيل الجبهة الوطنية التي ضمت كافة الأحزاب الوطنية العراقية.. لاحظت أن السياب كان يتحرك حول المنصة ويمشي بصعوبة ويغالب ألماً في رجليه، ولكنه كان متماسكاً وواثقاً غير متهيب من الجمهور، يقرأ قصائده بانفعال صادق في قاعة مكتظة بالحاضرين والمدعوين ومحبي الشعر.

كان صوته واهناً ولكنه عميق تحس فيه حرارة المشاعر النابعة من صميم الوجدان. استمر يقرأ بطريقة مسرحية، ربما بدت غريبة وغير مألوفة للحاضرين الذين لم يعتادوا على رؤية شاعر يتمايل يميناً وشمالاً .. يروح ويجيء وسط خشبة المسرح، يمشي ويؤشر بيديه الممدودتين، رافعاً رأسه يديره من جهة الى أخرى، كان يبدو كما لو كان هو وشعره فقط، ناسياً الجمهور أو كأنه خارج المكان والزمان. لاحظت بعض الطلبة يتهامسون مستغربين،ولكنهم كانوا يحسون بأنهم يسمعون شعراً عظيماً وأن داخل هذا الكيان الناحل الذي أمامهم لا بد أن تكون موهبة شعرية كبيرة.

ذكرني منظر السياب هذا، بمنظر الشاعر الروسي المشاكس الشهير 'يوجين يفتشينكو' وهو يلقي قصائده بجامعة الجزائر عام ١٩٨١، حين جاء بدعوة من اتحاد الكتاب الجزائريين، سألته يومها: 'لماذا تستخدم هذه الطريقة التمثيلية الغريبة في الإلقاء؟' لماذا لا تقرأ بهدوء، فالشعر هدوء الروح ومناجاة الوجدان؟' فأجاب: 'نحن الروس لا نلقي الشعر، بل نمثله مثل شعراء الإغريق القدامى، فالشعر مسرح تراجيدي، هكذا علمنا مايكوفسكي الذي كان لا يمثل فقط حين يقرأ قصائده بل يكاد يرقص على المسرح، وأنا أرقص كذلك أحياناً حين أقرأ أشعاري. قاعتكم هذه صغيرة فأنا أعتدت قراءة أشعاري في الميادين العامة، وملاعب الرياضة حيث تتسع لمئات الألوف من العمال والطلبة لسماع قصائدي. وكنت أُمثّل شعري أمامهم وأنزل أحياناً من المنصة وأمشي بينهم وأنا أنشد أشعاري'

وفعلاً كان يفتشينكو ينزل عدة مرات من المنصة ويمشي بين ممرات القاعة بين الطلبة المستمعين، وهو يلوح بيديه ويتمايل بجسمه ويترنم بصوت عال بقصائده التي يحفظها عن ظهر قلب.

حين انتهى السياب من القراءة، كان التعب بادياً عليه، يتصبب عرقاً وما زال منفعلاً، فقد بذل جهداً كبيراً كي يحتفظ بتوازنه، كنت مشفقاً عليه وهو يروح ويجيء على المنصة، وكأنه شجرة آيلة للسقوط. ربما لم يكن الطلبة يستوعبون فهم تلك الصور الشعرية العميقة المتداخلة والكنايات المركبة في ثنايا القصائد الحرة الجديدة، لكونها غير مألوفة لديهم أو هي فوق ما يسعفهم إطلاعهم المحدود على ماهية الشعر وأجوائه الداخلية، ولكنهم دون شك يحسون أنهم استمعوا إلى شعر ليس كالشعر، وأن خلف هذا الجسم المتهالك روحاً عبقرية قل نظيرها. فقد برز بجسمه النحيل أشبه بقصبة ريفية تهزها ريح النخيل فتعزف أعذب الألحان.

كانت تلك الأمسية حدثاً ثقافياً وتاريخياً نادراً، لم يتكرر طيلة حياة السياب، فقد حضرها جمهور غفير من أدباء ومثقفي بغداد، وجمع من الطلبة الذين حضروا من كليات أخرى إلى جانب قسم من أساتذة الكلية (لم تحضر نازك الملائكة التي كانت مدرسة معيدة لمادة النقد الأدبي المقارن والعروض في نفس الكلية، ولم تحضر الشاعرة عاتكة الخزرجي أستاذتي في قسم اللغة العربية)

في نهاية الأمسية تقدم عميد الكلية الدكتور محمد ناصر وسلم على السياب، وكذلك أساتذتي: الدكتور علي جواد الطاهر، الدكتور الشاعر عبد الرزاق محيي الدين، والدكتور صفاء خلوصي. إضافة إلى بعض المدعوين. كان السياب يصافح الجميع ويسلم عليهم بأدب جم وبشيء من الخجل الظاهر، وهما الصفتان اللتان تميزان شخصيته العامة وتربيته الريفية. حين خرجنا من القاعة، كان هناك جمع من الطلبة والطالبات ينتظرون السياب لتحيته والتعرف عليه. إزداد ارتباكه حين وجد نفسه محاطاً بهذا العدد الذي لم يكن يتوقعه من طلبة الكلية. السياب فيه خجل خاص من المرأة لا سيما حين تكون قريبة منه، ربما يحبها بعيدة، حيث يحسن مناجاتها ومخاطبتها، وتستهويه مكاشفاتها بعواطفه والتغزل بها، لكنها حين تكون قريبة منه تثير فيه الارتباك وقد تفقده أحياناً قدراته البلاغية الكامنة في التجاوب وحسن المخاطبة.

لاحظت فيه ذلك وهو يحاول بتواضع وحياء محاورة الطالبات اللواتي أقبلن عليه يسألنه عن الشعر الجديد، وبعضهن رومانسيات يسألنه بجرأة عن بعض قصائده الغزلية التي كانت شائعة بين الطلبة آنذاك، مثل قصيدته المعروفة التي مطلعها :

ديوان شعري كله غزلُ بين العذارى بات ينتقلُ

أدركت أن السياب بدأ يتعب والإعياء باد عليه بعد جهد الأمسية والأسئلة الكثيرة التي إنهالت عليه من الطلبة، فالتفت وحاولت تدارك الموقف قائلاً: 'أرجوكم

.. الأستاذ بدر متعب ولا بد أن يرتاح ويحتاج إلى فنجان قهوة ويرتاح قليلاً في النادي' إرتاح للفكرة، وقال خذوني للنادي، فاصطحبناه أنا وحميد الهيتي ومحمود الريفي إلى نادي الكلية الذي كان يقع خارج المبنى، في الجهة اليسرى وراء السد الترابي الذي يخترقه خط سكة حديد قطار البصرة . بغداد. في هذا المكان كادت أن تقع حادثة خطيرة تودي بحياة السياب وحياتنا معه. لن أنسى تلك اللحظات المروعة التي حدثت كلمح البصر، بل ستظل تلازمني ما حييت. فحين تركنا الطلبة وأخذنا السياب معنا متجهين نحو النادي، مشينا وهو في وسطنا، كان على يميني وكنت ممسكاً بيده اليسرى، وكان هو على يسار كل من حميد الهيتي ومحمود الريفي،

كان يمشي ببطء وكنا نسنده، حيث كان يعاني من ألم في رجليه. كنا مستغرقين في الحديث عن الأمسية، وهو مستغرق بشيء من الانشراح عن ذكرياته في الكلية.

حادث

بدأنا نمشي صعداً متسلقين درجات السد الترابي، هادئين مبتسمين مقتربين من السكة الحديد، وإذا بالقطار يندفع نحونا بلحظة جنونية خاطفة. كان على مسافة أمتار قليلة، لا ندري من أين جاء، كأنه بسرعة أسطورية خرج لنا من باطن الأرض دون أن ننتبه لصوت عجلاته أو صافرة إنذاره التي ربما أطلقها دون أن ننتبه لها حين يمر عادة. كان هذا القطار يمر مرة واحدة كل مساء في هذا الوقت قادماً من البصرة متجهاً إلى وسط بغداد، ودون وعي مني بلحظة غريزية، كمن يواجه الموت جذبت السياب بقوة الى الخلف، سحبته بشدة من يده النحيلة التي ما زال يمسك بها يدي، تدحرجنا الى الوراء وتدحرج أيضاً صاحباي: الريفي والهيتي وسقطنا متكومين تحت تراب السد. بعد لحظات التفت إلى السياب بعد أن عبر القطار فوجدته ممتقع الوجه، مصفر الملامح، والتراب يعفر وجهه، قلت له بقلق: أستاذ بدر هل أنت بخير؟ تمتم بصعوبة وهو يحدق في وجهي بذهول: 'الحمد لله .. لقد أنقذت حياتي. شكراً لك، قلت له: 'الله أنقذنا جميعاً .. ما حدث شيء لا يصدق، أقبل صاحباي على السياب ليطمئنا عليه، وصرنا نتساءل بذهول كيف حدث هذا؟ بعدها. سرنا الى النادي ونحن نسند السياب الذي كان يمشي بيننا بألم ظاهر، عبرنا السد الترابي مرة أخرى ودخلنا النادي. إخترنا طاولة في الزاوية اليسرى في نهاية النادي، جلسنا متحلقين ومنهكين، جلس السياب قبالتي، بدأ يهدأ ويلتقط أنفاسه، لاحظت بعض الغبار فوق شعره وسترته حين سقط على الأرض، مددت يدي لأنفضه،لكنه رد بمزاح: 'لا عليك .. فهذا، كما قال الشاعر: غبار المعارك 'وضحكنا. أدركت حب المرح وربما خفة الدم في شخصية السياب، فقلت له مداعباً: 'الحمد لله إن معركتك مع الأمسية انتهت بنجاح' فرد مبتسماً: إن معاركي لا تنتهي.. معاركي القادمة ستكون هي الأصعب .. ' لم أسأله عن معاركه القادمة لكنني فكرت في سري: تراه يقصد معاركه مع الحزب الشيوعي الذي بدأت خلافاته معه، وأدت به في ذلك الوقت إلى تغيير انتمائه السياسي ووقوف اليساريين ضده والذين لم يحضروا الأمسية؟

سألته ماذا يحب أن يشرب .. فقال : شاي بالحليب بدون سكر، قلت له: هل أطلب لك قطعة من (الكيك)؟ فقال: أنا ممنوع من أكل الحلويات بسبب السكري، فقلت له: كيف وضعك معه؟ قال: هو في بدايته كما يقول الطبيب وأنا أواصل العلاج وملتزم بنصائحه 'ذهبت لأجلب له الشاي بالحليب والقهوة لي ولصاحبي اللذين تركتهما يتحاوران معه حول ذكرياته في 'العالية'.

عندما عدت وجدته محاطاً بطلبة من قسم اللغة العربية من محبي الأدب،جاءوا يسألونه عن الشعر فكان ينصحهم قائلاً: 'عليكم بالتراث، ولا تنسوا الآداب الأجنبية (كان السياب خريج قسم اللغة الإنجليزية في العالية) انتهزت فرصة حديثه مع الطلبة وبدأت أتأمل ملامحه وهو يشرب الشاي ويتحدث، أتفرس في تفاصيل وجهه الطفولي الشاحب، وعينيه الغائرتين المتعبتين، بدا لي مهذباً متواضعاً، لا يشعر جليسه بحرج معه، ودوداً وعلى جانب شديد من الحياء الذي يزيده وقاراً، يتحدث وهو مطرق في الغالب، يكثر من استعمال يديه حين يهم بشرح فكرة ما،وقد أثار إنتباهي طول أصابعه المفرط، وهي تمسك بكوب الشاي، فقد بدت معروقة وبادية الزرقة بشكل ملحوظ وقلت مع نفسي : أهذه هي الأصابع التي تكتب كل تلك القصائد المدهشة؟ وهومن جانب آخر عاطفي مع أفكاره يتحمس ذاتياً للدفاع عن خواطره، حين يحدثك ينظر إليك ويبتسم في وجهك، فتحس نحوه بالإلفة وتجده قريباً من نفسك.

حين تسأله لا يجيبك بسرعة، يفكر ملياً بما سيقول، وهذا جزء من الحذر والترقب في شخصيته، وربما إنعكس هذا على أسلوبه المتأني في كتابة القصيدة التي يقلبها ملياً ويتفحصها مراراً قبل أن يدفع بها الى النشر. حين تنظر الى السياب وهو هادئ النفس، متطامن المشاعر، مطرق، تحس أنك امام إنسان (خيرّ) بكل ما تحمل الكلمة من معان، تماماً مثلما كان يردد قول الشاعر 'كن خيراً لا كاتباً وحسيباً'، فتعطف عليه وتتعاطف معه فهو عميق البراءة، لا يمكن أن يؤذي أحداً أو يقترف شراً، وقد كشفت الأحداث في السنوات اللاحقة أن هذه البراءة عند السياب، وربما الغفلة (غفلة المؤمن) كما يقال هي التي جعلت منه ضحية سهلة لأصحاب السوء والنوايا الخبيثة من زملائه الشعراء الذين يحسدونه ويكيدون له ويغارون من موهبته الكبيرة، فهو لم يعرف كيف يداور أو يتحايل أو يتزلف، ولم يعرف حتى كيف يكشف عن قدراته الشعرية الهائلة، أو يسوق قصائده بحثاً عن الأضواء والشهرة كما يفعل الآخرون. بادر السياب بسؤالنا عن الأمسية فهو بطبيعته شديد الحساسية إزاء شعره ورأي الآخرين فيه، وهو أيضاً كثير التوجس والخوف من وجود هؤلاء الآخرين، ويخشى النقد ولا يحتمل المجابهات لأنه إنسان مسالم، ولكنه قد يثور ويفقد صوابه حين يحس بالغبن أو ينتقص أحد من قيمته أو يستهين بقدراته، خطر لي أن أسأله عن البيت الذي ورد في قصيدته عن بورسعيد ومدح فيه جمال عبد الناصر:

'يا أمة تصنع الأقدار من دمها لا تيأسي إن عبد الناصر القدرُ'

قلت له: أستاذ بدر .. أنت حورت هذا البيت ووضعت إسم عبد الناصر بدل (سيف الدولة) الذي كان موجوداً أصلاً في القصيدة المنشورة التي قرأناها سابقاً، حيث كان سياقه: 'لا تيأسي إن سيف الدولة القدرُ' .. فقال: هذا صحيح، أنا تعمدت إدخال هذا التضمين كي يتمشى مع السياق. قلت له: لماذا؟

قال: 'أنا تجاوبت مع مشاعر المستمعين وعواطفهم الوطنية والقومية في هذه الظروف وكما تلاحظ أن الظرف السياسي الحالي يكاد يكون مشابهاً لظروف سيف الدولة الحمداني في القرن الرابع الهجري كلاهما كان بطلاً قومياً يحارب أعداء الأمة العربية'.

– أوافقك على ذلك، ولكن ملاحظتي كانت بخصوص أمانة النص الأدبي..

– 'أنا أفهم ما تعنيه، ولكن على الشاعر أيضاً أن يكون أميناً على مصالح أمته، ولا يضيع أية فرصة لاستنهاض هممها القومية. والشاعر عليه مسؤولية تجاه مصير شعبه، وهذا لا يضير النص الأدبي، لا تظن هذا تزييفاً أو تلوناً، هذا جزء من التزام الأديب الذي هو في النهاية حر في نصه وأفكاره. هذه هي فلسفتي في الأدب والالتزام'..

لم أجادله بهذا الشأن حيث أخذ يتحدث عن فلسفة الالتزام في الأدب، ونظرية الفن للفن، والشعر في خدمة الجماهير.. الخ وهي الآراء التي قرأناها بعد ذلك في محاضرته التي القاها عام ١٩٦١ في روما حين ذهب للمشاركة في مؤتمر حول الأدب العربي المعاصر.

بعض النقاد والجهات الأدبية انتقدت السياب حينها وأتهمته بالتناقض، والتذبذب في محاضرته عن 'الإلتزام واللاإلتزام في الأدب العربي' التي القاها في مؤتمر روما، والتي ذكر فيها أن تأثره هو وجيله من الشعراء العرب بالشاعر ت.س.اليوت، كان موضوعياً وفنياً، مخالفاً فيه رأيه المتداول والمعروف في المقابلات الأدبية، في أن تأثره كان فقط من ناحية الأسلوب، وخاصة في قصيدتيه 'الأرض الخراب' و'أغنية العاشق بروفروك' الى آخر هذه الآراء المعروفة التي دُرست بإسهاب في كتاب 'الأسطورة في شعر بدر شاكر السياب' للناقد الدكتور عبد الرضا علي .. غير أن السياب دافع عن رأيه في ذلك الوقت، ولم يعبأ كثيراً بتلك الإنتقادات التي إعتبرها مغرضة وغير موضوعية، وعبر بوضوح عن موقفه إزاء إلتزام الشاعر بقضايا المجتمع ونظرته الفلسفية نحو موقف الإنسان في الفن والوجود ..

كان السياب مرتاحاً لجلسته معنا في النادي، فقد طلب كوباً آخر من الحليب الساخن، قال إن ذلك يهدئ آلام القرحة التي تنتابه من حين لآخر.

إلتفت إليّ يسألني: (هل قرأت المقالة أمس في مجلة 'الفنون' ؟

– نعم .. قرأتها.

– كيف وجدتها؟

– وجدت فيها تهجماً على بعض الشعراء من زملائك.

– أنا لم أتهجم. هم الذين تهجموا عليّ، وحاولوا الإساءة الى سمعتي لأنني اختلفت معهم في الرأي، أنا طرحت آرائي حول الواقعية والالتزام في الأدب،وضربت بعض الأمثلة، كما أنني حر في اختياراتي السياسية.

– لك الحق في ذلك طبعاً، ولكنك قلت عن عبدالوهاب البياتي: (إنه عالة عليّ وعلى إليوت)

– 'نعم أنا قلت ما أعتقد من الحقائق، إنهم يأخذون مني وينسبونه الى 'إليوت'.

أنا أقرأ 'إليوت' بلغته الأصلية، وهم يقرأونه مترجماً، وفي النهاية يلتبس عليهم الأمر، ويصبحون عالة على كلينا، أغلبهم حساد، بلا مواهب'

لاحظت لأول مرة نبرة غضب في لهجته نظراً لحساسية الموضوع.

(كانت مجلة 'الفنون' البغدادية الأسبوعية قد نشرت في ذلك الوقت مقابلة مع السياب، تحدث فيها عن موضوعات شتى حول الأدب والشعر العراقي الحديث، وعلاقته بالشعراء العراقيين). أدركت تسرعي في إثارة هذه الموضوعات الحساسة حول خصوماته مع الآخرين التي تزعجه وتثير انفعاله فآثرت تغييرمجرى الحديث.

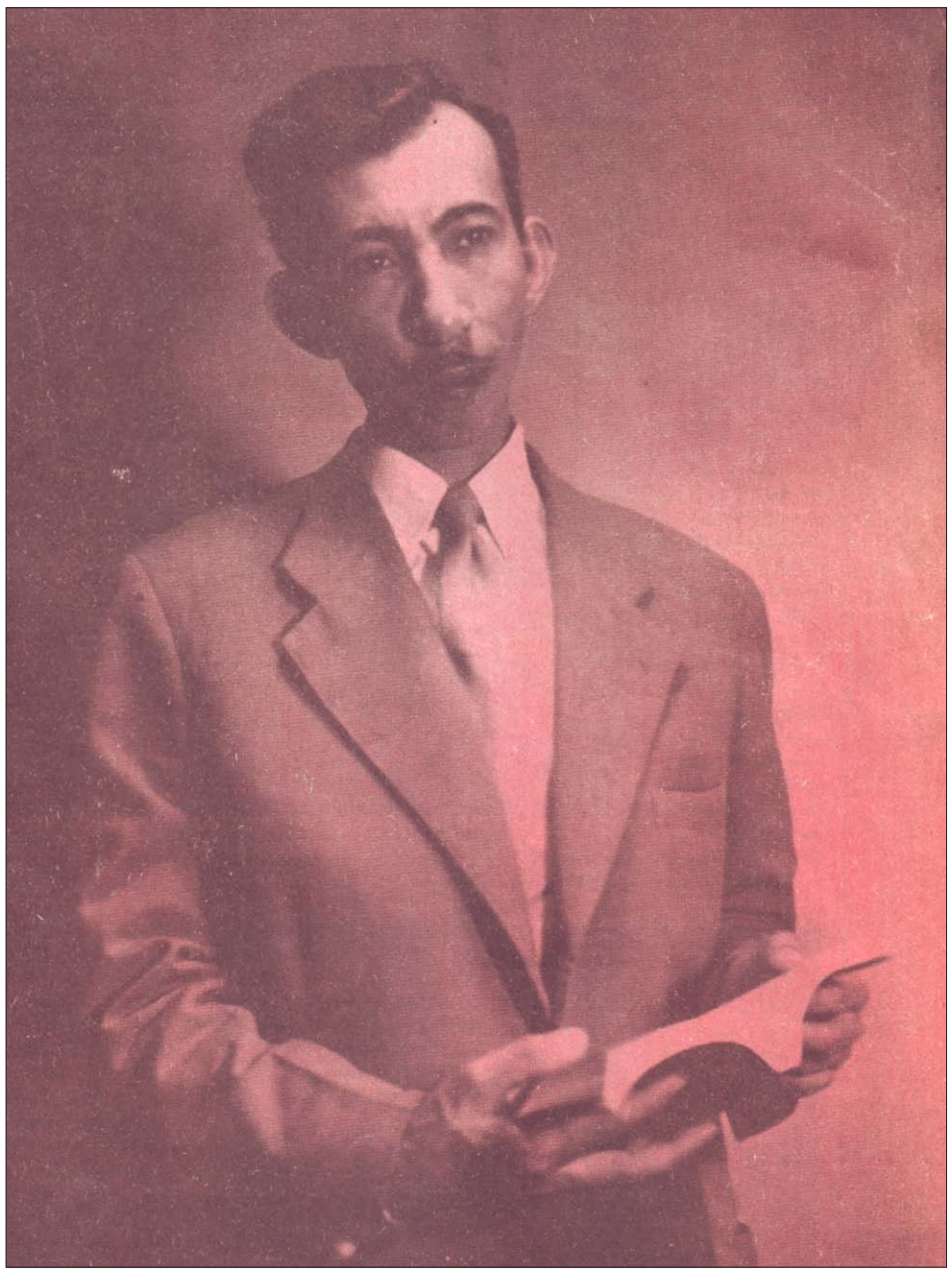

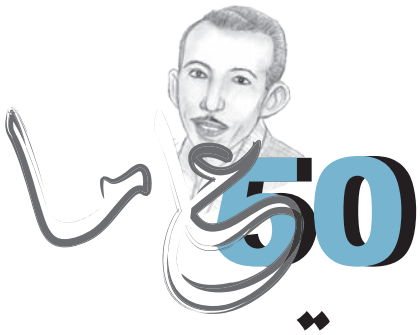

زيارة لبيت بدر شاكر السياب في البصرة

حسن توفيق
ناقد واديب مصري

حين أكملت المرحلة الثانوية، كنت قد أكملت – عن ظهر قلب – حفظ قصائد الشاعر الرقيق الدكتور ابراهيم ناجي، المبثوثة في ثنايا دواوينه الثلاثة »وراء الغمام« – ١٩٣٤، »ليالي القاهرة« – ٠٥٩١، »الطائر الجريح« – ٧٥٩١ وكنت أحس أن قصائده بمثابة كنز مخبوء في صدري. وأدركت – فيما بعد – أني تعلقت بشعر ناجي، لأني – وفقا لتفسير الدكتور محمد مندور – واحد من الشباب المحرومين من متع الحياة، على الرغم من تفتح وعيهم عليها، ولذا يلاقي شعر ناجي المترقرق باللهفة والعطش الروحي استجابة في نفوسهم الظمأى. وحين كبرت.. وانطلقت إلى الجامعة.. كبر معي حبي لناجي، لكن شاعرين كبيرين من رواد حركة الشعر الحر في وطننا العربي أخذا يزاحمانه في قلبي مزاحمة شديدة. أولهما: بدر شاكر السياب – من العراق، وثانيهما: صلاح عبدالصبور – من مصر. وأتذكر أني كنت أقلب صفحات مجلة »الآداب« البيروتية، بحثا عن قصائد منشورة لكليهما أو لأي منهما، فإذا وجدت كنت أشتري المجلة وإلا فلا!. لم ألتق بناجي خلال حياته بالطبع، وان كان أبي يؤكد لي أنه قد عالجني في عيادته بحي شبرا ذات مرة، وأن ناجي لم يتقاض منه أجرا، لأنه كان يعالج أبناء الفقراء بالمجان في أغلب الأحيان.. كما أن أستاذي الشاعر د. كمال نشأت كان يسعدني كثيرا عندما كان يحدثني عن لقاءاته العديدة بناجي. أما السياب.. فإني كنت أحلم بأن يزور مصر، لكي يقدر لي أن ألقاه، لأن فكرة السفر إلى العراق للقياه كانت أمنية عسيرة المنال، وقد اكتشفت – فيما بعد – أن السياب نفسه كان يحلم بزيارة مصر، لكي يلتقي بأدبائها وشعرائها، مثلما قدر له أن يلتقي بأدباء لبنان خلال فترة مرضه، وهذا ما يتضح في بعض رسائله التي نشرت بعد رحيله. وكنت – إمعانا في تأكيد تعلقي به – أسجل اسمه هو في كشوف المترددين على دار الكتب المصرية عندما أرتادها، وأذكر أني زرت الشاعر هلال ناجي (وكان مقيما بالقاهرة في الستينيات) لكي يزودني بما يعرفه عن السياب، فوجئت بقوله: لماذا لا تذهب للسياب نفسه، خاصة أنه موجود في القاهرة، بدليل أنه يسجل اسمه في كشوف المترددين على دار الكتب التي اطلعت عليها بنفسي؟!. في الرابع والعشرين من ديسمبر عام ١٩٦٤ رحل السياب عن عالمنا بعد صراع مضن وطويل مع المرض الذي افترسه، وأقعده مشلولا في أخريات أيامه.. رحل دون أن يتحقق حلمي بلقياه. لكن القدر الذي حرمني من لقيا السياب ومن قبله ناجي، شاء أن يسعدني، لأني تعرفت بصلاح عبدالصبور منذ أن كنت طالبا بالجامعة، وتعلقت به إنسانا مثلما تعلقت به شاعرا، وعملت معه سكرتيرا ثم مديرا لمكتبه في الهيئة العامة للكتاب بمصر منذ أن تخرجت، ومنذ أن قيل لي إن صلاح عبدالصبور قد رحل عن دنيانا في الثالث عشر من أغسطس عام ١٩٨١، وأنا أرفض هذا الذي قيل، مكذبا كل القائلين، لأني أحس بأن غيابه الجسدي لا يشكل لي عائقا في استحضاره في أي وقت أشاء. ولنعد إلى السياب.. حين تهيأت للدراسات العليا بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة، كنت مصرا وقتها على أن تكون أطروحتي لنيل درجة الماجستير عن بدر شاكر السياب، وبالفعل فقد تم تسجيل الأطروحة عام ١٩٦٦ بعنوان »شعر بدر شاكر السياب – دراسة فنية وفكرية«، وكان الدافع لإصراري على تسجيل هذا الموضوع بالذات هو حبي العميق للسياب، وكان هناك دافع آخر قومي، هو الإيمان بوحدة الثقافة العربية خلال العصور المختلفة التي مرت بها، ومن هنا فإنني اخترت أن أدرس شاعرا عربيا ينتمي إلى قطر عربي »العراق« غير القطر العربي الذي أنتمي إليه »مصر« نتيجة هذا الإيمان بوحدة الثقافة العربية في جوهرها. كان من حسن حظي أني استطعت الحصول على نسخة من كتاب »بدر شاكرالسياب والحركة الشعرية الجديدة في العراق«، وهو الكتاب الذي أصدره الكاتب والمحامي العراقي محمود العبطة عام ١٩٦٥، أي بعد رحيل السياب بعام واحد، فكان هذا الكتاب أول دراسة متكاملة عنه، وتنبع أهمية هذا الكتاب من ارتباط صاحبه بأواصر صداقة وطيدة بالسياب، ومن اهتمامه برصد النتاج الشعري في العراق في بداية حركة الشعر الحر، ومن ناحيتي فإنني بذلت محاولات مضنية ومتأنية للحصول على دواوين الشعراء العراقيين الذين رصد نتاجهم محمود العبطة، وكان أن حصلت – ضمن ما حصلت عليه – على ديوانين لشاعرة عراقية من جيل السياب، وكشفت لي دراسة هذين الديوانين عن وجود علاقة حب قوية بين تلك الشاعرة وبين السياب، وهذا ما لم يتحدث عنه أحد من الدارسين والباحثين بعد دراسة محمود العبطة، لسبب بسيط يتمثل في أنهم لم يهتموا بالحصول على الديوانين اللين استطعت الحصول عليهما. وإذا كان الدارسون والنقاد العرب لم يهتموا بدراسة شعر السياب خلال حياته المضطربة القصيرة التي لم تتجاوز ثمانية وثلاثين عاما، فإن كثيرين درسوا جوانب حياته ومقومات عطائه الشعري ولكن بعد رحيله عن دنيانا. هناك من درسوه ضمن دراساتهم عن شعراء آخرين، ومن هؤلاء: د. جليل كمال الدين في كتابه »الشعر العربي الحديث وروح العصر«، د. ابراهيم السامرائي في كتابه »لغة الشعر بين جيلين«، جبرا ابراهيم جبرا في كتابه »الرحلة الثامنة«، محيي الدين اسماعيل في كتابه »ملامح العصر«، د. لويس عوض في كتابه »الثورة والأدب«، رجاء النقاش في كتابه »أدباء معاصرون .

وهناك من أفردوا له دراسات مستقلة، متناولين فيها حياته وشعره، وأول من أصدر كتابا كاملا عن السياب هو كما قلت محمود العبطة عام ١٩٦٥، وفي عام ١٩٦٦ أصدر عبدالجبار البصري كتاب »بدر شاكر السياب رائد الشعر الحر«، وأصدر سيمون جارجي كتاب »السياب – الرجل والشاعر«، وفي عام ١٩٦٨ صدر كتابان آخران هما »بدر شاكر السياب والمذاهب الشعرية المعاصرة« لمحمد التونجي و»بدر شاكر السياب – حياته وشعره« لنبيلة الرزاز اللجمي، ثم أصدر الدكتور احسان عباس كتابه الضخم »بدر شاكر السياب – دراسة في حياته وشعره« عام ١٩٦٩، وفي عام ١٩٧٠ أصدر محمود العبطة كتابه الثاني عن السياب بعنوان »أضواء على شعر وحياة بدر شاكر السياب«، وأصدر خالص عزمي عام ١٩٧١ كتاب »صفحات مطوية من أدب السياب«، أما الكتاب العاشر من هذه الكتب التي أفردها أصحابها لتناول السياب فكان كتاب »السياب« الذي أصدره عبدالجبار عباس عام ١٩٧٢ . ومن خلال هذه الدراسات مجتمعة، والتي تتباين بالطبع في مستواها العلمي، وفي مدى تعاطف أصحابها مع السياب، ومن خلال الجرائد والمجلات الأدبية العربية التي كان السياب ينشر فيها قصائده أو مقالاته، تكونت لي حصيلة وافرة، استطعت بها أن أنجز دراستي عن الشاعر الكبير، وكان هذا عام ١٩٧٨، حيث نوقشت بإشراف أستاذتي الدكتورة سهير القلماوي، وصدرت في كتاب عام ١٩٧٩ لكنني – على الرغم من الجهد والتأني والصبر في جمع مادتي عن السياب – كنت أحس بيني وبين نفسي بغصة كبيرة. لأني لم أزر العراق، وبالتالي لم أزر البصرة، ولا قرية »جيكور« التي شهدت ميلاد السياب عام ١٩٢٦، ولا نهر »بويب« الذي حفظت اسمه نتيجة تغني السياب به في قصائده. وفي سبتمبر عام ١٩٨٠ قدر لي أن أزور العراق لأول مرة، ولكن بعد أن كانت دراستي قد صدرت، ولم يقدر لي في تلك الزيارة أن أزور الجنوب، حيث زرت وقتها الشمال وتجولت بمدنه »الموصل« و»أربيل« و»كركوك«، وعدت من زيارتي وقد ازددت تعطشا لزيارة جنوب العراق، وهذا ما لم يتحقق لي إلا يوم الخميس ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٨٥، حيث زرت البصرة ضمن وفود الشعراء العرب الذين استضافهم مهرجان »المربد« الشعري السادس. بل إني سعدت وانتشيت، لأني كنت الوحيد، من بين جميع الشعراء العرب، الذي زار بيت الشاعر الكبير، وكان لي لقاء مع أسرته في هذا البيت. لم تكن فكرة زيارتي لبيت بدر شاكر السياب واردة في ذهني، لأن برنامج زيارة ضيوف »المربد« للبصرة كان محددا من قبل. بدأت الفكرة – ببساطة وبشكل عفوي – عندما قدمني من يعرفونني إلى »آلاء« الابنة الصغرى للسياب، صافحتها محييا قرب قاعدة تمثال الشاعر الكبير، وسألتها عن »غيداء«، فقالت لي: »هل تعرفها؟!«.. أجبتها قائلا: »نعم.. فهي أختك الأكبر منك، وقد ولدت عام ١٩٥٦، أما أنت فقد ولدت عام ١٩٦١«.. ابتسمت »آلاء« في دهشة، ثم استأذنت لتنادي »غيداء«.. تصافحنا بحرارة، وبقينا نتحدث قرب قاعدة تمثال السياب، وبين الحين والحين كنت أتطلع إلى التمثال، وتتصارع في أعماقي مشاعر شتى. أمام السياب.. شعرت بالنشوة تتملكني، وخيل لي في لحظة من لحظات الوهم أنه سيقبل لكي يصافحني، ولكي

يربت على كتفي «غيداء» و«آلاء»، مانحا إياهما عواطفه الأبوية العميقة. وأمام السياب.. احتوتني مرارة مالحة.. حين سألت نفسي: ألا بد للشاعر العربي أن يموت، لكي يكرمه الآخرون، ويوفيه حقه النقاد والدارسون؟!. أعادتني «غيداء» إلى الواقع، وأبعدتني عن مشاعري التي كانت تصطخب في أعماقي، حينما قالت لي: «ألم تلاحظ هذه الثقوب؟!».. آه.. إنها شظايا القصف الإيراني من جراء الحرب التي دخلت عامها السادس.. الشظايا لا تستطيع أن تميز بين الأشياء.. إنها تقتحم . وهي تندفع . النبيل والرذيل، والجميل والقبيح على السواء.. إنها لا تميز.. وهكذا قدر لتمثال السياب أن تقتحمه الشظايا.. وكأن الشاعر العربي الكبير الذي تعرض للمتاعب والمصاعب في حياته، لم يسلم أيضا من التعرض للقصف بعد رحيله الجسدي عن دنيانا!!. قرأت ما هو مكتوب على اللوحة الرخامية عند قاعدة تمثال السياب.. هذا هو اسمه.. وهذا عام مولده وذاك عام رحيله عن دنيانا، وفقا للتقويمين الميلادي والهجري.. وهذه سطور من قصيدته الرائعة التي كنت - وما زلت - أحفظها منذ سنوات.. قصيدة «غريب على الخليج» التي يضمها ديوانه العظيم «أنشودة المطر».. والسطور المختارة، تصور مشاعر السياب عندما كان هائما على وجهه، خارج العراق، يعاني الغربة والضياع عام ٣٥٩١. إنها سطور يتكشف منها مدى إحساس السياب بالوحشة وهو بعيد عن شمس العراق، وبعيد كذلك عن ظلام الليل في العراق.. الشمس أجمل في بلادي من سواها والظلام حتى الظلام هناك أجمل فهو يحتضن العراق واحسرتاه متى أنام فأحس أن على الوسادة من ليلك الصيفي طلا فيه عطرك يا عراق؟ بين القرى المتهيبات خطاي والمدن الغريبة غنيت تربتك الحبيبة.. عندما انتهيت من القراءة مرة.. ومرات.. قلت لنفسي: «واحسرتاه.. إن الشظايا التي لا ترحم أسقطت العديد من النقاط من فوق الحروف.. وعلى سبيل المثال فإن نقطة الجيم في «الشمس أجمل..» قد سقطت.. وتنبهت أيضا إلى أن رقم (٩) من عام مولده بالتقويم الميلادي قد سقط هو الآخر.. لكني اندهشت حين قرأت أن عام مولده - وفقا لما هو مكتوب على قاعدة التمثال - هو عام ٥٢٩١، إن كل الدارسين والباحثين قد ذكروا أن السياب ولد عام ١٩٢٦، بمن فيهم محمود العبطة في كتابه الأول عن السياب، لكنه في كتابه الثاني حاول أن يثبت أن السياب قد ولد عام ١٩٢٥، حيث يذكر أنه راجع سجلات المدرسة المحمودية الابتدائية، وقد عثر على معلومات خاصة بالشاعر نقلها من السجل رقم (٦) وصفحة السجل ٧٥٧ «والمعلومات هي: المحلة: قرية جيكور - تاريخ الولادة ١٩٢٥ - آخر مدرسة كان فيها قبل دخوله المحمودية مدرسة باب سليمان - أبيض الوجه - أسود العينيين - أحواله الصحية جيدة وسيرته في المدرسة جيدة». إذن فإن من اختاروا ما هو مكتوب على اللوحة الرخامية قد استشاروا محمود العبطة بشأن تاريخ ميلاد الشاعر، مع أن السياب نفسه - خلال حياته - كان قد أشار في مواضع عديدة إلى أنه ولد عام ١٩٢٦، ولم يذكر مطلقا أنه ولد عام ١٩٢٥ ، وبالمناسبة فإن بلند الحيدري وعبدالوهاب البياتي قد ولدا أيضا عام ١٩٢٦، وهما - كما نعرف - من جيل السياب. أنصرف الشعراء قاصدين فندق شيراتون - البصرة، للراحة، واكتشفت أنه لم يبق سواي وغيداء وأختها آلاء وشاب رقيق من البصرة هو أياد سعيد مزعل، وحين انطلقت سيرا على الأقدام إلي الفندق سألت غيداء أن تسمح لي بزيارة البيت.. بيت السياب رحبت بطلبي الذي كنت أهدف من ورائه إلقاء نظرة على مكتبة السياب، وعلى ما قد يكون موجودا من قصائد مخطوطة أو رسائل موجهة له من الأدباء العرب، إلى جانب لقائي بزوجته السيدة إقبال طه العبد الجليل. أحسست وأنا أدخل بيت السياب أني إنما أدخل بيتي، وأنه كان يتعين علىَّ أن أدخل هذا البيت منذ سنوات. واستقبلتني السيدة «إقبال» بترحاب شديد، أضاف إلى ألفتي الروحية المسبقة ألفة روحية جديدة، لكني لاحظت أن أعماقها تشي بالحزن المقيم، الذي تحاول أن تخفيه عن ملامح وجهها دون أن تفلح، فهي تعرف أن الشعراء العرب ضيوف «المربد» قد حضروا إلى البصرة، ليضعوا أكاليل الزهور على قاعدة تمثال زوجها الغائب عنها سنة ١٩٦٤. زاد من ألفتي الروحية مع المكان ذاته، أني لاحظت أن جدران غرفة الاستقبال مطلية باللون الأزرق الفاتح، وأن الأرائك والمقاعد خضراء اللون.. إنني أحب هذين اللونين.. الأزرق يعني عندي البحر والسماء، والأخضر عندي يعني الحقول والغابات. أقبلت الابنة الصغرى «آلاء» بالمشروبات الغازية أولا، لكني لم أشرب، بصراحة كنت محتاجا لكوب من الشاي. .. كان السياب يحب الشاي كثيرا، ويروي أصدقاؤه ومخالطوه أنه كان يجلس في الأمسيات في العديد من المقاهي الشعبية، ومن بينها مقهى «الزهاوي»، وكان لا يشاهد إلا وأمامه كوب الشاي، «الاستكان» بينما هو منهمك في قراءة أبي تمام.. كان هذا في بغداد خلال أواخر الخمسينيات. أقبلت «آلاء» مرة أخرى، حاملة صينية كبيرة تحوي أطباقا مملوءة بالكعك المحشو بالتمر العراقي، ولم آكل إلا بعد أن علمت أن الصناعة محلية.. فالسيدة «إقبال» والدتها هي التي تصنع هذا الكعك.. أعترف بأني أكلت منه بشهية مفتوحة. أطلعتني «غيداء» على مخطوطة ديوان «شناشيل ابنة الجلبي» وهو الديوان الذي صدر في أوائل يناير ١٩٦٥، أي بعد رحيل صاحبه الشاعر الكبير بأيام قلائل.. وأطلعتني على بعض القصائد الأخرى بخطه.. لكن مفاجأتي كانت كاملة حين اكتشفت أن إحدى هذه القصائد لم تنشر من قبل، وبالتالي فهي اكتشاف أدبي، حتى لو لم يكن مستواها هو نفس مستوى قصائد السياب الشهيرة.. استأذنتها في تصوير القصيدة، لكي يتسنى لي نشرها فيما بعد. القصيدة بعنوان «نبوءة حزينة»، وهي من حصاد عام ١٩٤٨، وهي مؤرخة - على وجه التحديد - بتاريخ ٢ فبراير ١٩٤٨، وهذا العام هو الذي شهد نهاية قصة الحب بين السياب وشاعرة عراقية معروفة، وكنت قد أفضت في الحديث عن هذه القصة في كتابي عن السياب.. وأدركت بعد قراءة القصيدة أنها من القصائد الموجهة إلى لميعة عباس عمارة، لكنها ليست في مستوى قصائده التي وجهها إليها، ولعل السياب لم ينشرها ضمن ديوان «أساطير» الذي أصدره عام ١٩٥٠ لهذا السبب.

... دار الحديث بيني وبين السيدة «إقبال»، وسرعان ما تشعب ليصبح حديثا جماعيا، بعد أن انضمت «غيداء» و«آلاء»..

× في البداية قلت للسيدة إقبال: هل لك ان تحدثينا عن ذكرياتك مع الشاعر الكبير؟.. أنا أعلم أنكما قد تزوجتما عام ١٩٥٧.

- قاطعتني السيدة إقبال.. قائلة: «عام ١٩٥٥» «وحين رجعت إلى كتابي تأكدت أن ذاكرتي قد خانتني، فقد سجلت في كتابي عن السياب أن عقد الزواج قد تم توقيعه في ٩١ يونيو ١٩٥٥. إذن فالاعتماد على الذاكرة وحدها قد يضلل..».

× شكرت السيدة إقبال على تصحيحها لما ذكرته بشأن عام زواجها من السياب.. وبدأت هي تتحدث لتضيف إلى ما كنت أعرفه أشياء جديدة..

- ... في الشهر التاسع «سبتمبر» عام ١٩٥٥ كان زواجنا.. ولعلك تعرف أن هناك صلة قرابة بين عائلة السياب وعائلتي.. كان عقد القران في البصرة، لكننا تزوجنا في بغداد في دار من دور محلة «الكسرة»، وأقمنا في «الكسرة» عاما واحدا، ثم انتقلنا إلى «الأعظمية»، وبقينا بالأعظمية فترة من الزمن، إلى أن فصل السياب من عمله في زمن عبدالكريم قاسم، فكان أن رجعنا إلى «البصرة»، وبعد فترة صعبة أعيد إلى العمل، وكان عمله في مصلحة الموانىء، وسكنا نحن في مساكن تلك المصلحة.. وجاءت الفترة الأصعب.. حين ألم به المرض، فانتقلنا إلى بيروت، لكي يعالج هناك، ومكثنا ثلاثة شهور، وحين عدنا إزداد عليه المرض، ودخل مستشفى الموانىء بالبصرة.. وفي خاتمة رحلاته بحثا عن الشفاء، انتقل في الشهر السابع (يوليو) عام ١٩٦٤، ليعالج في الكويت، سافر زوجي وحده في البداية، ثم التحقت به بعد ذلك لفترة ليست كبيرة، لأني كنت مرتبطة بالدوام باعتباري معلمة في المدارس، وكان لا بد أن أعود نتيجة ظروف عملي.. وبقي هو هناك إلى أن توفي يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٦٤.

.. لم أشأ - من ناحيتي - أن أصحح للسيدة «إقبال» تاريخ وفاة السياب، فالصحيح أنه توفي يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٦٤ ووصل جثمانه إلى البصرة، حيث دفن في مقابر «الحسن البصري» في اليوم التالي.. أي يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٦٤، وربما ظل التاريخ في ذهن السيدة «إقبال» (٢٥) لا (٢٤) لأن جثمانه ووري التراب يوم ٢٥ ديسمبر.

× قلت للسيدة إقبال».. وماذا عن ذكرياتك معه؟.. كيف كانت تبدو شخصيته في نظرك؟.. وكيف كان يعاملك؟ وماذا عن لحظات غضبه ولحظات سروره هنا داخل البيت؟

- لا أذكر أنه كان يغضب أبدا.. لحظات الغضب التي تتحدث عنها لم تمر به هنا أمامي.. كان دائما متسامحا رقيقا.. يحب الكل.. ويحب الهدوء.

× وماذا عن شعورك بعد أن كرمته الدولة وكرمه الجميع بعد رحيله عن الدنيا؟.. ولماذا لم يحصل على هذا التكريم في حياته؟

- أشعر بالراحة النفسية.. مثل الراحة التي يحس بها أي إنسان عندما يجد أن إنسانا غاليا وعزيزا عليه ينال حقه من التكريم.. وأنا أشكر الحكومة العراقية على هذا التكريم لزوجي. والحقيقة أنه خلال حياة السياب، لم يكن هناك اهتمام بالأدب ولا بالأدباء، وبالتالي فلم يكن هناك أي مظهر من مظاهر التكريم له أو لغيره من الشعراء.

× وماذا عن معاناتك أنت «وغيداء وآلاء» إزاء الباحثين الذين يحضرون إلى البيت، لكي يحصلوا على مصادر أو كتب تدور حول السياب.. لكنهم لا يهتمون بعد ذلك بإعادة هذه المصادر أو الكتب إليكم..؟

- نحن دائما نكون مسرورين بقدوم أي ضيف إلى دارنا، فنحن نشعر أن قدومهم هو تكريم للسياب، ولهذا نرحب بهم دائما، ولا نجد أية مضايقة من أحد منهم.

× ولكن ماذا بشأن من يحصلون على كتب أو مصادر، ولا يعيدونها مرة ثانية لكم؟

- نحن نتسامح.. نحن.. لم تستطع السيدة «إقبال» أن تكمل ما تود أن تقوله.. اكتشفت أن عبراتها تختلج.. وكأنها على وشك الإجهاش بالبكاء.. وتمالكت أنا الآخر نفسي بصعوبة.. وأدركت «غيداء» برقتها وذكائها صعوبة الموقف، وصعوبة أن تتحدث أمها بعد ذلك.. فتدخلت هي لكي تكمل الإجابة.

- غيداء: دائما نبدو متسامحين.. روح التسامح تسيطر علينا.. ونقول «على الله العوض..».. ونعزي أنفسنا بأن هذه الكتب عزيزة على من أخذها مثلما هي عزيزة علينا.. والحقيقة أن بدر شاكر السياب ليس ملكا لنا.. للأسرة.. فحسب، لكنه ملك لكل العراقيين، بل لكل العرب الذين يقدرونه ويحبونه. والحقيقة أننا نعرف الضعف البشري عند الناس، لأنه موجود في طبيعتنا جميعا باعتبارنا من البشر.. ولذا فإننا نتسامح كما قلت لك.

× قلت لغيداء: أود أن أعرف مدى اهتمامك بالشعر، على الرغم من أنني علمت منك أثناء حديثنا في الطريق إلى الدار انك تخرجت من كلية الهندسة - جامعة البصرة؟

- اهتمامي بالشعر ينحصر في قراءته فقط، وللأسف فإنني لا أملك الموهبة التي تتيح لي ممارسة كتابة الشعر وبالتالي أكتفي بالقراءة، وأجد فيها متعتي.

× وما رأيك في شعر والدك؟

- بدر شاكر السياب في رأيي قمة.. لكني - في مرات كثيرة - أحس بالتعب وأنا أقرأ له.. والحقيقة أن انتمائي له وما يسببه هذا الانتماء يمكن أن يكون له تأثيره بالنسبة لرأيي.. ولكن يبقى بدر شاكر السياب سارية علم.

× كنتِ صغيرة عندما توفي والدك - رحمه الله - ولكن هل تستطيعين أن تحددي أية مواقف أو ذكريات معه خلال حياته؟

- الذكرى الوحيدة التي ستبقى في نفسي، لأني - كما قلت أنت - كنت صغيرة.. هي ذكرى رجوعه من الدوام بعد العمل.. كان يأتي متوكئا على عكازه الخشبي.. وجيوبه مليئة بالشكولاته والسجائر.. الشكولاته لي ولغيلان وآلاء.. أما السجائر فله.. هذه هي الذكرى الوحيدة التي ستبقى في نفسي.. أما بقية الأشياء فإنها مجرد أطياف حلوة.. أو مجرد آمال أتخيلها وأتوهم أنها حقيقة من شدة شوقي إليه.. إلى بدر شاكر السياب.

.. تخيلت كم كان يعاني وهو يتوكأ على عكازه الخشبي، وكم كان يعاني معاناة أشد، وهو يحاول أن يدبر نقودا لكي يشتري «الشكولاته».. لغيلان وغيداء وآلاء.. والسجائر له.. تخيلت هذه المعاناة، لأني تذكرت رسائله التي كان يرسلها لأصدقائه، وكلها تدور حول هذه المعاناة.. رجعت - فيما بعد - إلى هذه الرسائل.. وهذه فقرة من رسالة كان قد أرسلها لجبرا ابراهيم جبرا من لندن، أثناء إقامته هاك للعلاج، والرسالة مؤرخة بتاريخ ٣٠ يناير ١٩٦٣، أي قبل رحيله عن دنيانا بما يقرب من عامين..

يقول السياب لجبرا في رسالته:

».. فوجئت عندما علمت أمس من السفارة العراقية أن رمضان قد حل. لكن همّاً أصابني.. سيأتي العيد وليس هناك من يشتري ملابس جديدة لأطفالي.. إن راتب أبيهم لا يكفي لأكثر من إطعامهم.. أفلا تستطيع إقناع الدكتور محمد الأمين بإرسال ما أستحقه عن ترجمة جزء من كتاب الأدب الأميركي إلى زوجتي.

إن ذلك سيجعلني مرتاحا ويزيل القلق من أفكاري. إذا لم يستطع فلتتفضل أنت بارسال أربعين أو ثلاثين دينارا إليها وسأعطيك إياها حين تعود أو تأخذها مما أستحقه عن الترجمة..«.

عن كتاب بدر شاكر السياب
قصائد مجهولة / طبعة القاهرة

بدر شاكر السياب
حفريات تاريخية في بواكير التكوين

د. سيار الجميل
اكاديمي عراقي

هات الردى ، أريد أن أنام
بين قبور أهلي المبعثرة
وراء ليل المقبرة
السيّاب

زورق يندفع ..

حدثتني اوراق قديمة ، أن صبيا ، كان يصنع له زورقا من ورق ، ليدفعه في مجرى نهر يتراءى للناظر انه راكد المياه ، ولكن الصبي يجد ، أن زورقه قد اندفع من خلال تيار يجري في العمق .. كان نهيرا اشبه بجدول ماء يسمونه بنهر ابو فلوس من شط العرب .. كان الصبي النحيل بثوبه المقلّم يزيغ بصره بعيدا حتى يختفي زورقه بين كتل اشجار النخيل الباسقة .. كان الصبي يدرك ، أن زورقه لا يختفي الا عند ساعة الغسق .. كان الصبي يعشق رؤية الشفق .. كان يتأمل في منظر النخيل وهو يحجب عنه قرص الشمس البرتغالي من مكان لآخر .. ولكنه يتنبأ بالظلام الذي سيجثو على كل المقبرة (= العراق) .

ثورة العصافير عند كل مساء

كان يرسم في ذهنه صورا خيالية تفيض روعة وجمالا عن واقع حقيقي يراه كل يوم ، بل ويذهب خصيصا لاكتشافه ، وهو يلهو بزوارق من ورق .. كان يعود ليحكي كل مساء " لوحة " غاية في الجمال .. كان يهوى الصمت في برّ بساتين النخيل ، ولا يعجبه الا اصوات الطيور عند المغيب .. ثم ثورة العصافير الجياشة ، كل يوم ، وهي تبحث لها عن المأوى فوق الاشجار .. كانت موسيقاه لا تبدأ الا عند مغيب الشمس .. كان شط العرب في الافق البعيد تتلاطم امواجه الصاخبة عند الجنوب الشرقي من البصرة ..

جيكور : صورة جديدة

كانت بلدة ابو الخصيب تهجع مع لواحقها وقراها .. ولم يكن احدا يتذكر جيكور حيث يقفز ذلك " الصبي " من مكان لآخر .. قريته التي عشقها والتي لا يتجاوز عدد سكانها عن الالف ومائتي نسمة ، والطريق الى جيكور قريب ، ولكنه ملئ بالملتويات .. واذا كانت جيكور عند رأس مثلث متساوي الاضلاع ، فان قريتي بكيع وكوت بازل تقعان عند قاعدة جغرافية ، وطالما تنّقل الصبي في ذلك المحيط لوحده من اجل اكتشاف صورة جديدة لم يألفها وجدانه ليرسمها خاطره .. وهو في مسارب ترابية بين الاشجار ، ولا يلمح من قريب او بعيد الا بيوت طين وسعف نخيل .. ولم يكن يحب الماء راكدا ، ابدا ، بل يعشقه يجري من هنا او هناك .. يركض ومجراه وهو يرقب شيئا ما ، ويصغي بكل جوارحه لخريره !

غابة من نسوة فارعات بشعرهن المتدلي

كان يصف اي شجرة نخل ، بامرأة فارعة ، وقد فرشت شعرها على كتفيها .. يتخيلها واقفة لا تجلس ابدا ، وهي حزينة منذ آلاف السنين .. وكلما انحنت ذات يمين او ذات شمال ، فقد قض الحزن مضجعها .. يكتشفها دائمة البكاء ، وهي تكره الغربان السوداء التي لا تجد امكنتها على رؤوسها أبدا .. فتنكث شعرها ، وتبقى مضطربة لا تعرف ماذا تقول ، ولا تعرف ماذا تقول .. كان يكتشف ان الغربان تكثر يوما بعد آخر وهي تنعق لتمزق الصور الجميلة الهادئة التي كان الصبي يرسمها لوحده في تلك البراري التي كان لوحده يتصورها بعيدة ، ولكنها قريبة جدا من بيته ! كان لا يستأنس من ناس قريته ، أو ناس قرى اخرى ، فيبقى منعزلا عن الاخرين وان وجدوه مع بقية رعيل الصغار ، فانه يبقى لوحده يلفه صمت قاتل بين اشجار النخيل السامقة ..

غربان ونوارس وعصافير

كان ينتظر لوحده وبيده خيزرانة من القصب ، يرسم بها على الارض ، خطوطا بانتظار لحظات الشفق وصورته التي يعشقها عشقا لا متناهيا .. انه يعشق وقت الغسق حتى اوان الغروب .. كان يكره اصوات الغربان ، وهي تشق الصمت بنعيبها ، ولكنها تتبدد بأصوات آلاف العصافير التي تريد ان تأوي الى اعشاشها وقت الغروب ، وهي تجيش بأصواتها حتى تهدأ عند خيوط الليل الاولى .. كان يكره نعيب الغربان في اوقات الشتاء ، ويشمئز من زعيق النوارس اوقات الصيف ، ولكنه يستأنس للعصافير عند الامسيات ، وأغنيات البلابل عندما يشق الفجر نفسه من اقاصي الشرق بكل سحره وجماله .. فالفجر ، أو عندما يطلع الصبح عنده ، هو غير لحظات الغسق . كان يستوقف الصبيان معه ، وهم يلعبون كي يعلمهم بتغيير الالوان عند المغيب ولا يجد له من مستجيب !

سيدة البحر العميق

كان يعشق البصرة بكل فلكورياتها وجمالياتها .. كان يستعين بسوقها كي يلتقي بالناس من كل الاجناس .. كانت البصرة بالنسبة اليه ، سيدة للبحر ، وعمق النهر ومفتاح البر ، ومفصل الأمم ، وسوق الدنيا .. كان يرى في البصرة ، امّا حقيقية لقريته التي لا يمكن لها ان تعيش يوما واحدا من دون البصرة .. البصرة عنده ، ضرورة حياة لا بجمالياتها حسب ، بل لأنها مستودع العيش ، ومحطة للانتقال ، وضفة النهر بكل مياهه المتدفقة .. ورأس البحر العميق .. كانت البصرة بالنسبة اليه هي المجتمع المتلون من كل الأجناس ، وهي الديوان الفخم الذي يستقبل اهله ، وكل الزائرين بكرم غير معهود .. كان يعدها صاحبة السيف والقلم ، ومنها انبثقت تصاريف لغة الضاد العريقة ، وشكّلت مدرستها النحوية ، ركنا أساسيا في حياة الحضارة العربية وحيويتها على امتداد الزمن ..

بيت العميان

بقي الشاعر وهو في طور التكوين الأول ، يعيش هواجس الزمن ، وذاكرة المكان ، فاذا كان الزمن قد اتعبه كثيرا بكل تناقضات الحياة الصعبة ، فان المكان ، ليس جيكور فحسب ، بل منطقة (بكيع) كلها (: بكيع : كلمة فارسية تعني بيت العميان) والتي تبعد عن ابي الخصيب بما يقارب الكيلوين من الامتار ، مثار الأسئلة الصعبة ، ومنها : لماذا أسموها ببيت العميان ؟ وما حقيقة ذلك ؟ هل ثمة أسطورة عتيقة تختفي في ذاك البيت ؟ .. أما جيكور ، المطلة على شط العرب ، فهي عنده بمثابة أمرأة ساحرة الجمال ، وهي مترعة بالحيوية والتوثّب ، وأمامها جزيرة بارعة الجمال اسمها (الطويلة) تلك التي كان السياب يقضي فيها الساعات الطوال متأملا شاردا في كل الاتجاهات .. وهو يلتفت ، وقد جلس قبالة الغرب ذات اليمين فيرى المسافات البرية والنهرية الطويلة نحو بغداد ، أو ذات الشمال ، فيرى المسافات البحرية الخليجية نحو العالم .

الجدول الاعمى والسر العجيب

عشق جيكور بكل احاسيسه ومشاعره ، ويقال انه بقي يتردد اليها طوال سنوات عمره القصير على عكس زميله الشاعر سعدي يوسف الذي انجبته ابي الخصيب قرب البصرة ، ولكنه لم تشغل ذاكرته وتعيش معه ابدا .. وجيكور تلك القرية الصغيرة المأخوذة من عبارة فارسية هي (جوي كور) (اي : الجدول الاعمى) والمقصود به : نهير بويب الذي تغنى به السياب كثيرا .. وهي يتهادى ماؤه في اراض تعود ملكيتها لآل السياب وهو يتفرع من نهر كبير .. آل السياب يملكون بساتين نخيل ، لكنهم ليسوا من كبار الملاكين في جنوب العراق . ويختفي وراء ثلاثة أماكن سر عجيب ببروز ثلاثة من أعظم الشعراء ، فان كانت جيكور قد أنجبت السيّاب ، وإذا كان أبي الخصيب قد أنجب سعدي يوسف .. فان التنومة قد أنجبت احمد مطر !

البلح الاخضر اقوى من قصر الامير

نعود إليه .. إلى أهله الذين عاشوا حياة محترمة في اعراف الحياة العراقية المحلية وقت ذاك ، وكان العائلة كبيرة وكثيرة الابناء ولكن تقّلص عددهم مع توالي السنين ، وتداول الأيام ، وخصوصا ، اثر انتشار وباء الطاعون

كانت بلدة ابو الخصيب تهجع مع لواحقها وقراها .. ولم يكن احدا يتذكر جيكور حيث يقفز ذلك " الصبي " من مكان لآخر.. قريته التي عشقها والتي لا يتجاوز عدد سكانها عن الالف ومائتي نسمة ، والطريق الى جيكور قريب ، ولكنه ملئ بالملتويات .. واذا كانت جيكور عند رأس مثلث متساوي الاضلاع ، فان قريتي بكيع وكوت بازل تقعان عند قاعدة جغرافية ، وطالما تنّقل الصبي في ذلك المحيط لوحده من اجل اكتشاف صورة جديدة لم يألفها وجدانه ليرسمها خاطره

في العراق عام ١٨٣١. وكان الجد الأكبر سَياب بن محمد بن بدران المير (المير هو الامير مختصرا بالتركية) قد فقد جميع افراد عائلته ، وابتلي بالحزن الذي دخل حتى عظامه ، وان اسمه من " سيب وحيدا " .. وهناك من يقول ، إن معنى السيّاب نوع من البلح او البسر الاخضر.

الاشباح في منزل الاقنان

ان الأب شاكر بن عبد الجبار السّياب ، قد تزوج بابنة عمه ، فرزق منها بكل من بدر وعبد الله ومصطفى ، وكان فخورا بهم متمنيا ان يكبروا ليساعدوه في حياته ، ولكنهم ذهبوا في مسارب اخرى لحياة العراق الجديدة التي تبلورت لما بين الحربين العظميين ، ولم يساعده احدهم .. وقد استلهم بدر صورا رائعة من طفولته وبدايات تكوينه ليضمنها " منزل الاقنان " متخيلا ذلك البيت الكبير الذي يزدحم بالعبيد ، وهو يعود للمير الكبير منذ العهد التركي ولم يسمع عنه الا قصص الاشباح التي رسمها في شعره ، وكأنها لوحة تشكيلية خارقة ابدعها بريشة فنان !

ملامح المومس العمياء

او يجد في قريته (جيكور) او منطقتها (بكيع) ملامح مومس عمياء .. ! أو وهو يمشي في ازقة البصرة وابي الخصيب التي تخيلها ابنة الجلبي ، وهي تتميز بشناشيلها الرائعة ومزججاتها الملونة التي تعكس شمس المغيب ، فتتراءى ألوانها العجيبة .. أو مترجما ما كان يسمعه من اغنيات محلية فولكلورية الى مقاطع شعرية ! ومنذ بواكيره يريد ان يعّرف العالم كله بكل جيكور ، فكان ان نشر صحيفة باسمها تدور على اصدقائه ، وكأنه يترجم رحلة رأي وخبر من الذي كان يسمعه في عقد الثلاثينيات الذي ازدحم بالصحافة والصحافيين .. وعند نهاية النهار ترجع اليه جريدته (جيكور) ليعلقها على احد الجدران .

روايات الاعاجيب

كان يهوى الاقاصيص التي يستسلم لسماعها من عجائز بيته ، والتي يختلط فيها المبهم بالصحيح ، ومعظمها حكايات غرست في ذاكرته ، وبقيت تعيش معه كل حياته . ولقد شكّلت تلك " الاقاصيص " لديه عالما زاخرا بالاعاجيب ، وانها فتحت لديه المجال لقراءة أساطير وملاحم ، جعلت منه صاحب خيال خصب لا يمكن الاحاطة بكل ابعاده أو مسافاته .. ونكاد نلمس من معظم اشعاره تأثير اغلب الحكايات والخرافات والاساطير التي كان يعالجها تفكيره من خلال تدفق ذكرياته ومؤثراته سواء عن البحر ، أو النهر ، أو الوحش ، أو السندباد ، أو عروس البحر ، أو أشباح الليل ، أو حدائق غنّاء .. الخ

الابتدائية.. الاولوية

لقد كانت ابتدائيته في مدرسة باب سليمان بأبي الخصيب ، ومنها الى المحمودية التي أسسها محمود جلبي العبد الواحد أحد اعيان ابي الخصيب سنة ١٩١٠ ابان العهد العثماني (منح لقب الباشوية بعد ذلك ، وكانت له اسهامات وطنية وخدمية للعراق)، وتخرج السيّاب في اروقتها بتاريخ ١ اكتوبر ١٩٣٨. ومن سجلاتها ، نسخ محمود العبطة المعلومات التالية (عن سجل رقم ٦ ، صفحة ٧٥٧) : إن السيّاب دخل المدرسة في ١ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٦ مقبولا في الصف الخامس ، ومنقولا إليها من مدرسة باب سليما ، وهو من قرية جيكور وولادته عام ١٩٢٥ ، وانه أكمل ابتدائيته فيها وكان قد رسب في الصف السادس عام ١٩٣٧ . ومن صفاته ابيض اللون ، واسود العينين . صحته جيدة وسيرته جيدة .

يبكي وحيدا عند قبر امه

لقد عاش بدر طفولة غير متجانسة برغم سعادته فيها ، إلا أنها لم تخل من المنغصات ، فقد توفيت امه وعمره لا يتجاوز السبع سنوات .. لقد رحلت عام ١٩٣٢ اثناء المخاض ، وهي في الثالثة والعشرين من العمر لتترك ابنائها الثلاثة وهم صغارا .. وتلك اول صدمة حطمت قلب بدر حينما اخذ وهو بعد يافعا يركض في كل الاتجاهات ولم يجد امه ، وكان يفقه ما تأويلات والده وعمته ليذهب وحيدا الى قبر امه كي يمتلأ حزنا وكمدا .. يبكي لوحده وهو يناجيها ، ولكنها لم تعد اليه ابدا .. انه يدرك انها ترقد في قبرها عند السفح الذي يراه من قلب القرية .. انه ادرك غيبتها .. فراح يختزن طيفها في ذاكرته الغضة حتى وهو يلعب في البساتين .. او قرب نهر بويب . لقد شكّل غياب أمه في تكوينه شيئا مهما جدا ، إذ بقي طوال حياته يبحث عن حنان مفقود لدى امرأة يعشقها كالطفل .

الحرمان منتج الصدمات

كان يلجأ الى جدته لأبيه (امينة) دوما كي تكون مستودع همومه وآلامه ، وابتعد بدر عن ابيه اثر زواج الاب بأمرأة أخرى ، ورحل وإياها إلى دار أخرى بعيدا عن اولاده ، ولكنها دار في بقيع ، وبقي السياب وكل من أخويه في دار الجد بجيكور .. لقد نما شعور سايكلوجي مرير لدى السياب بالحرمان من الامومة والابوة معا منذ طفولته ، وليعشق قربه من جدته ويحتمي بها من قسوة الحياة ، ومن الشعور بالحرمان .. ولم تتوقف الصدمات ، بل تفاقمت ازمات العائلة بوقوعها تحت طائلة الديون ، فبيعت الأرض ، وتبددت الأملاك القديمة لعائلة المير ، ولم يبق منها الا فتات الاشياء مذكرا اياهم بعز الاسلاف !

المزججات الملونة وشناشيل بيت الجلبي

كان يقف ، وهو في طريقه الى مدرستة المحمودية ليستمتع بمناظر البيت الفخم الذي كانت تزينه الشرفات الخشبية التي تعلوها المزججات الملونة ، وقد انعكست عليها اضواء الشمس ، فتكّون الشناشيل اروع صورة في مخيلة ذلك الصبي الذي لا يقف عن التأمل في المعاني والاشياء .. لقد ولدت شناشيل ابنة الجلبي منذ زمن الطفولة .. كان يلمح ابنة الجلبي في تلك الشناشيل او يتخيلها جالسة هناك في الاعالي وهي تقاسم الشمس الاضواء ، وخصوصا بعد زخات مطر مفاجئة .. لم يكن أحد يعرف من تكون ابنة الجلبي ، ولكنني تأكدت بعد بحث عميق من هي تلك " الابنة " التي كانت تقف عند تلك الشناشيل الجميلة التي تميزت بها واجهات بيت آل العبد الواحد .

رحيل جدته أمينة

نعم ، بدأ منذ مرحلة مبكرة ينظم الشعر بالعراقية الدارجة ، وهو يصف الطبيعة بأبهى صورها ، او يسخر من بعض زملائه مثيرا الانتباه .. وقع شعره عند مسامع معلميه ، فانتبهوا إليه .. اخذوا يشجعونه على كتابة الشعر بالفصحى .. كان يغيب ، ثم يعود .. مرحلة مراهقة صعبة من حياته ، يهاجر فيها بخياله إلى أماكن يتخيلها وهو يتأمل اسرار المكان الجميل .. كان قوي الارادة بحيث يختزن احزانه ولواعجه في الأعماق ، ولكنه يبدو هاشا باشا ومسرورا بحياته المفعمة بكل جديد ، فهو يعد نفسه ابن عراق جديد أسسه فيصل الأول .. ويبدو انه اكتوى بنار الحب عندما عشق راعية اسمها هاله ، وأحبها ليس إلا تعويضا للحب الذي افتقده .. ولكنه اكتوى بحزن جديد من جديد للانسان التي احبها ، ولمن كانت مستودعه .. لقد ماتت جدته أمينة التي منحته الاهتمام والعطف والمحبة .. ولكنه كان قد صلب عوده عندما رحلت في ايلول/سبتمبر ١٩٤٢ وهو في السابعة عشرة من العمر . رثاها وهو يذرف الدمع عليها ويئن من شدة الاسى ..

تجربة الانسحاق: مرجل للبركان العراقي

لقد مرت به تجربة الشعور بالظلم ، اذ ترسخت لديه المشاعر ان عائلته قد ظلمتها قوى الملاكين الكبار التي استغلت اهله واملاكهم .. لم يكن واقعيا في فهم الحياة ، بل عالجها برؤى رومانسية ، كشاعر خصب العاطفة وبخيال جامح .. كان يؤمن بالمثاليات فتراه دوما يصطدم بواقعية الاشياء الصعبة وممارساتها بحيث يفتري القوي على الضعيف ، فيكبحه ويسيطر عليه .. كان يشعر انه واسرته قد تعرضوا لظلم كبير .. وان الإحساس بالظلم من أصعب الأشياء التي تسحق الإنسان ، وان الإحساس بالانسحاق يولّد الانفجار .. كان مسحوقا بابويه ومسحوقا باسرته ومسحوقا بشكله الذي كان يؤذيه كلما وجد نفسه امام المرآة .. كان لا يتخلص من تعليقات هذا او ذاك .. لقد تكّون في اعماق السيّاب سيابا بركانيا هائلا .. لا يقوى السيّاب العادي من ايقاف امواجه الصاخبة التي ستتدفق طوال حياته القصيرة . انني اعتقد ان احاسيسه بالانسحاق بعد رحيل جدته ، ومشكلات الجد المالية ، قد جعلته يهرب بشكل عادي نحو بغداد ليتشّكل السيّاب الجديد ويترك السيّاب القديم في جيكور !!

التحّول الى انسان جديد في القطار نحو بغداد

لقد رحل السّياب عن موطنه الذي عشقه عشقا لا متناهيا ، وهو في القطار الصاعد نحو بغداد تاركا السّياب الاول كي تبدأ حياة السّياب الثاني مذ ولد سيابا جديدا ببغداد التي اكمل فيها ثانويته ، وبعد تخرّجه من الثانوية صيف ١٩٤٣ ، وقبل طالبا ، وهو في مقتبل العمر في دار المعلمين العالية ببغداد .. وكانت تلك " الدار " من اشهر اكاديميات الشرق الاوسط قاطبة نظرا لامكاناتها المعرفية ، ونظام التعليم فيها وازدحامها بالمبدعين القادمين والزاحفين عليها بجدارة متناهية من كل أنحاء العراق وبقيت منارة حضارية وثقافية عراقية تشع بنخبة رائعة من أقوى المبدعين العراقيين الذين اثروا الثقافة العربية بأروع الأعمال .. ولكنها ، ويا للأسف الشديد ، انهارت بعد العام ١٩٥٨ ، لتغدو كلية بائسة لا يتخرج فيها الا البعض من الخريجين العاديين وزاد انسحاقها عندما غدت مصنعا مؤدلجا وأداة نظام حكم جائر .. كان بدر في السابعة عشرة من عمره ليقضى فيها أربعة أعوام ..

عراقيون
من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي

عدنان حسين

نائب رئيس التحرير: علي حسين

الاخراج الفني: نصير سليم

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

WWW. almadasupplements.com

وداعاً يا بدر..

محمد مهدي الجواهري

اخي بدر.. اننا جد حزينين عليك حزنا متوهجا اليما صادقا لا اشك ابدا انك وانت في الرفث الاعلى من سماء الوطن الحبيب لتدرك وتحس مدى وتلمس مدى ضرعه، ومدى المه، ومدى صدقه.. اننا حزينون يا بدر على خسراننا اياك، وانت في عز ريعان الشجرة المعطاء، وفي الاوج من ذروة السحاب السخي الممطر، وفي الصميم من قوة الفجر الزاحف.. من لطفه.. من روعته.. من خلقه وابداعه...

لقد كنت يا بدر هبة سخية من هبات الزمن الضنين.. ومع هذا فهي هبة مستردة قبل الاوان، مسترجعة في ابان حرص الموهوب عليها.. وفي قوة اعتزازه بها، وفي سورة تفتحه على وعيها، وادراك جوهرها، وفي غمرة احساسه بلذة فهمه اياها وقيمة تجاوبه معها.. تجاوبه مع اصدائه الحلوة المنغمه.. لقد كنت يا بدر قيثارة مسحورة يتراجف على شفاهها الم شعب لم يتعلم الا قليلا.. عظمة مع الالم، معنى سره.. معنى خيره وشره.. معنى عواصف جبارة ينطوي عليها.. ومعنى غصن خلاق ينشد به.. معنى ياس مدمر وبناء من جديد ايضا يندا فيها..

لقد كنت يا بدر.. يا شاعر .. يا قيثارة. املا ابيضا مجسدا ينبثق من سويداء الالم الاسود القاتم كما ينبثق عطر العود من المجمر المحترق من خلال النار والدخان..

لقد كنت انت بالذات بلحمك.. بدمك.. باعصابك.. بعظامك.. ومن وراء كل ذلك فبروحك وانفاسك.. كنت ذلك المجمر، وذلك العود وذلك الضرم الاكال، وذلك الدخان.. ومن وراء كل ذلك ايضا، بل ومن اجل كل ذلك، فقد كنت عطرا ذكيا وارجا ذكيا بفارق واحد مشرف هو الخلود.. اذ يغنى كل عود، واذ يطير كل دخان، واذ يحرق نفسه بنفسه كل مجمر ، ثم اذ تأكل الرياح العاقة كل عطر..

لقد كنت يا بدر جسرا ذهبيا حيا يعبر عليه بثقة واعجاب، ولطف واعزاز كل هذا الموكب الساحر من دنيا الشعر العربي الفخم الضخم الخالد المنحدر عبر العصور الى الضفة المقابلة من الارض الجديدة التي تجاورت، وتفاهمت مع القمر في اجرأ محاولة، واخصب تجربة حاولها الموهوبون للتدليل على ان روعة الموسيقى في الحداء العربي، وانسياب النغم، ورقة الصياغة، ومتانة السلاسل الذهبية الى جانب نعومتها، يمكن ان تنصب كلها في قوالب جديدة متطورة مستساغة دون ان نقصد اي شيء من خصائصها ، ودون ان ترتج بها، وتتنافر معها، وتفيض عليها او تتقلص عنها تلكم القوالب، ودون ان ترفضها الارض الجديدة التي تحط عليها.

كنت يا بدر.. خلافا مبدعا، وليت كل الناس يدركون كيف يكون الخالق المبدع، لماذا وكيف، وباي ثمن.. كنت مبدعا خلاقا بمحض انك تحيل كل عقبة في سبيل الابداع حافزا اليه، وكل خسارة او مصيبة، وكل ضعب او نقص او عقدة هي والخلق عند الموهوبين طرفا نقيض.. كنت تعيدها تواما للخلق ، وجزءا من الابداع، ومركبا نلولا اليه. ومع هذا وبشيء من التفاؤل، فقد اقتحمت اخيرا اسماع الجيل، ونفذت منها الى مسارب الوحي منه.. اصداء الخالقين المبدعين، ففهم وان بعض الشيء، عن مدارجهم في متاهات الحياة.. عن مدى معاناتهم شرورها، وعن مدى فداحة الاثمان التي دفعوها من اعراقهم واعصابهم .. واخيرا فمن مصارعهم شهداء حرف حني نابض وفداء كلمة نفاذة.. خيرة.. وضحايا مجتمع يكابدونه، وطعام مشاعل يوقدونها..

وها انت يا بدر.. فيما تنساب على الافواه، وفيما تتلامح وتتدافع على السطوح من شاشات الضمائر، وعلى حفافها، واحيانا، فحنى في الصميم من اعماقها الصور الحزينة المثيرة، لحياة مرة عشتها، واوجاع مزمنة في الروح والبدن كابدتها، ونهاية واغطه ومنذرة انتهيت اليها، وانت في طريقك الى حدث مربع..

ها انت يا بدر.. في كل ذلك، واشباه ذلك لدليل على وعي جيل عن جيل.. وعلى وفاء عصر عن عصر، وناس عن ناس، وتبدل مقياس باخر، وميزان بميزان.

وبكلمة واحدة فعلى انفتاح في بيل خبرة تخلفنا عنها زمنا طويلا، وحق علينا مضاعفة السير فيها وافذاذ الخطو عليها، اذا اردنا التعويض في اللحوق بركب الصاعدين، لقد كنت يا بدر شهيدا من شهداء افذاذ سيكتب لهم اجر الشهادة وثوابها الف مرة ومرة على قدر ما ماتوا وحيوا، ثم ماتوا وحيوا الف مرة ومرة، فهم بذلك شامخون على كل شهيد، على كل فارس، عن كل معارك يشمخون ان ماتوا الف مرة ومرة في ظروف واجواء تزدحم بالف نوع ونوع من الموت من القتل من القدرة على الاحياء بعد الموت بمحض ان يذوق الشهيد موتا جديدا وعلى يد الف جلاد وجلاد اهونهم جلاد الحاجة وغول الاحواج، انه يبدو ملاكا اذ يقف الى جانب اغوال جائعة وزواحف مسحوقة واشباح كانها طلع الشياطين.

لقد كنت يا بدر في حياتك المتجددة العذاب من تلكم الكتل المرهفة المرهقة باعصابها باحاسيسها، برقتها.والتي وهبت نفسها مضغة قلب طاهر يتلاقفها ليعصرها بين كلابتيه، حقد الحاقدين وجحود الجاحدين ونكران الناكرين وعقوق العاقين ورجوم الراجمين وبينها كلها يطل بوجهه المخيف الخبث وحتى يشمخ عليها كلها، هو رحمة الراحمين..

وداعا يا بدر والى اللقاء فلأول مرة يتاح على اديم هذا الوطن الحبيب ان يحيي متغرب عائد متغربا لن يعود. وداعا لذكريات حلوة جمة مترابطة لم تنفرط – وانت سماواتك تشهد على ما اقول – عقدها ولا انفصمت سلسلة من سلاسلها ولم يخبطها خابط ولم لي خلالها وعلى طولها وعرضها وعمقها رأي فيك او حكم عليك او بخس لموهبتك او جحود لعبقريتك.

وداعا يا بدر وداعا..

عن ملحق خاص صدر عن مجلة الاذاعة والتلفزيون ١٩٧٣

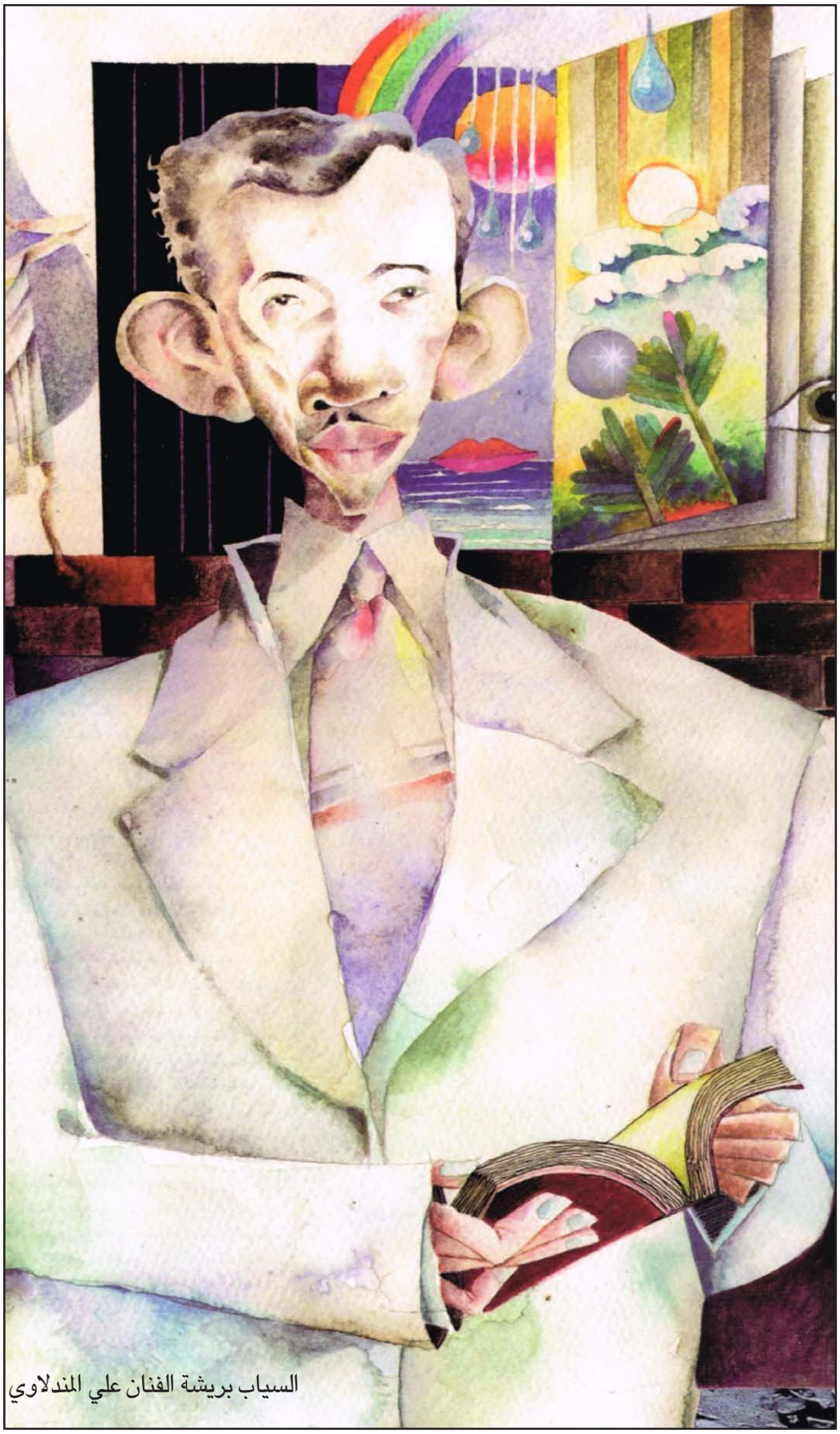

السياب بريشة الفنان علي المندلاوي